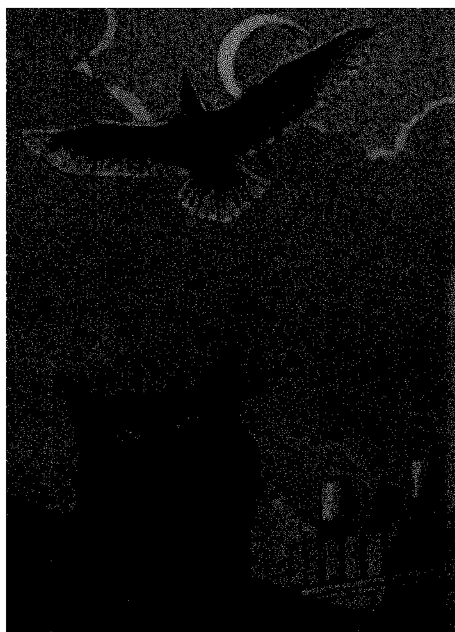
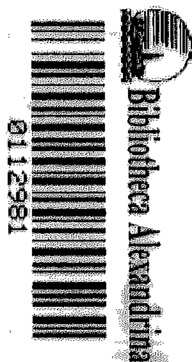
لويس سبولبيدا

قصة النورس والقط الذي علمه الطيران

رواية للفتيان من الثامنة وحتى الثامنة والثمانين





ترجمة
رفعت عطفة

قصّة النورس والقط الذي علّمه الطيران

* لويس سبولبيدا
* قصّة النورس والقط الذي علّمه الطيران
* ترجمة: رفعت عطفة

* الطبعة الأولى 1999
* الناشـــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التـــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص.ب 4490

لويس سِبولبِيدا

قصّة النورس والقط الذي علّمه الطيران

رواية للفتيان من الثامنة وحتى الثامنة والثمانين

ترجمة: رفعت عطفة

عنوان الكتاب الأصلي:

Historia de una gaviota
y del gato que le enseño a volar

مقدّمة

إنّ أمريكا اللاتينية التي أمسكت بروح الأدب، منذ غابرييلا ميسترال وخوليو كورتاثار وبابلو نيرودا في الشعر، إلى أليخو كاربنتيير وميغل أنخِل أستورياس، وجورج أمادو وغارثيا ماركيز وإيزابيل ألليندي في الرواية. تقدم لنا أخيراً وليس آخراً لويس سِبولبيدا، التشيلي (أوباليو 1949) الذي ظهر فجأة بعد نشر روايته «العجوز الذي كان يقرأ الروايات الغرامية» وتحوّل إلى واحد من أكثر الكتّاب الناطقين باللغة الإسبانية حضوراً على الساحة الأدبية العالمية، فقدّم للمكتبة أعمالاً أخرى مهمّة مثل «عالم نهاية العالم» وهو كتاب يتراوح بين البحث والإدانة، ورواية «اسم مصارع ثيران»، و«باتاغونيا اكسبرِس» التي تجمع بين أدب الرحلات والسيرة الذاتية. تأتي بعد ذلك هذه الرواية التي بين أيدينا، والتي كتبها لتكون لكلّ الأعمار، كما جاء على غلافها. يقول سِبولبيدا إنّه وعد أولاده ذات يوم بأن يكتب لهم قصّة عن المعاملة السيئة التي نتعامل بها نحن البشر مع محيطنا، عندما نخرّبُ الطبيعة وبالتالي نخرب أنفسنا. وقد وفّى بوعده لهم حين قدّم لهم هذه الرواية «قصّة النورس والقط الذي علّمه الطيران»، وهي تحكي عن المغامرات

التي خاضها وعن التفاني الذي عاشه القطّ ثورباس، الكبير والأسود والسمين، الذي يقوده شعوره النبيل بالشرف إلى أن يلتزم بتربية فرخ نورس، بعد وعدٍ أعطاه للأم، النورس الجميلة والعذبة بعد أن وقعت في شرك موجة من النفط سفحته إحدى البواخر في البحر. كم يجهدُ، وكم يعاني القط الكبير والأسود والسمين في حضانة البيضة، ثمّ في حماية الفرخ، وكم يستنفر أصدقاءه من القطط الأخرى كي يستطيع الإيفاء بما ألزم نفسَه به. وفي النهاية يفي بوعده، يعلّمه أو تُعلمه القطط الطيران.

إن من يقرأ هذه الرواية لا بدّ سوف يجد أنّ الكاتب قد حقّق هدفين في آنٍ معاً، إذ حقّق أولاً عملاً أدبياً يرقى إلى مصاف الأدب العالمي فعلاً، وحقّق ثانياً إرادة انتصار الخير على الشرّ، الجمال على القبح، لكنّ هذا الانتصار جاء على يد الحيوانات، وبالتحديد على يد حيوانين متناقضين، قط وطائر. هذه المعادلة الصعبة لم تتحقّق بعد على يد الإنسان، الإنسان الذي ما زال يعمل على تدمير الطبيعة. والطامّة الكبرى أنّه يعي هذا التدمير، ويعي أنّه يدمّر ذاته ومع ذلك يستمرّ به.

يبدو أنّنا ما زلنا نعيش مرحلة ابن المقفّع وكليلة ودمنة، ولا بدّ لنا من حكمة الحيوان للانتصار أولاً على ذاتنا وثانياً للطبيعة التي تمنحنا الحب والحياة والجمال.

رفعت عطفة

إلى أولادي سِباستيان وماكس وليون،

إلى مرفأ هامبورغ،

لأنّهم ركبوا الباخرة هناك،

وإلى القط ثورباس طبعاً.

القسم الأوّل

1

بحر الشمال

ـ أسراب من الرنجة على يسار الباخرة! ـ أعلن نورسُ المراقبة فتلقى سرب فنار الرمل الأحمر الخبرَ بزبيط ارتياح.

كان قد مضى عليها ستُ ساعات من الطيران دون توقف وعلى الرغم من أنّ النوارس القباطنة قد قادتها عبر تيارات من الهواء الحار، جعلت الطيران فوق المحيط ممتعاً، إلاّ أنها شعرت بحاجتها إلى استجماع قواها، وهل هناك تخمة أفضل من الرنجة.

كانت تطير فوق مصبٍّ نهر إلبا في بحر الشمال. ترى من الأعلى السفن المصفوفة الواحدة خلف الأخرى كأنها مرضى أو حيوانات مائيّة مهذّبة تنتظر دورها للخروج إلى البحر المفتوح، لتوجّه من هناك مسارها إلى جميع مرافئ الكوكب.

كانت كنغَة نورساً فضيّة الريش وتحبّ تأمّل أعلام السفن بشكل خاص، فهي تعرف أنّ كلّ واحدٍ منها يمثل شكلاً من أشكال الكلام، تسمية الأشياء ذاتها بكلماتٍ مختلفة.

ـ ما أصعبها عند البشر. بينما نعيبنا نحن النوارس واحد في كلّ أنحاء العالم ـ علّقت كِنغَه ذات مرّة أمام إحدى رفيقاتها في الطيران.

ـ هو كذلك. وأهمّ ما في الأمر أنّهم يتمكّنون أحياناً من التفاهم ـ نعبت المشار إليها.

كان المنظر خلف خطّ الشاطئ يضرب إلى الخضرة الكثيفة. كان مرجاً هائلاً تظهر فيه قطعان الأغنام وهي ترعى بملاذ الجدران ومراوح طواحين الهواء الكسولة.

تبع سربُ فنار الرمل الأحمر، بحسب تعليمات النوارس القباطنة، تيارَ هواءٍ باردٍ وانقضّ على سرب الرنجة. مئة وعشرون جسداً اخترقت الماء مثل السهام وخرجت يحمل كلٌّ منها رنجة في منقاره.

كانت رنجات لذيذة، لذيذة، لذيذة، وسمينة. تماماً ما كانت تحتاجه لاستعادة قواها قبل متابعة الطيران نحو دِنْ هِلْدِرْ حيث سينضمّ إليها سربُ جزر فريسياس.

كانت خطّة الطيران قد أخذت بعين الاعتبار متابعة الطريق إلى ممر كالياس وقنال المانش، حيث ستكون في استقبالها أسراب خليج السين وسان مال التي ستطير معها وصولاً إلى سماء بيثكايا.

عندئذٍ سيصلُ عددُها إلى نحو ألف نورس تشكل ما يشبه غمامة فضّية سريعة، تزداد حجماً بانضمام أسراب بِيّ إِيّ، إوليرون ورؤوس ماتشيتشاكو والآخو وبينياس. وحين تطير جميع النوارس المرخص لها بقانون البحر والرياح فوق

بيثكايا يمكن أن يبدأ الاجتماع الكبير لنوارس البلطيق والشمال والأطلسي.

سيكون لقاء جميلاً. هذا مافكّرت به كِنغَةْ حين أتت على رنجتها الثالثة. وستستمع كما في كلٍّ سنة إلى حكايات مهمة خاصّة تلك التي تحكيها نوارس رأس بينياس، الرحالة التي لا تكلّ وتطير أحياناً حتى جزر الكناري أو الرأس الأخضر.

ستباشر النوارس الإناث مثلها ولائمَ سردين وحبّار عظيمة، بينما سيجهّز الذكور الأعشاش على حافّة جرف؛ تضع فيها بيوضها وتحتضنها بعيداً عن كلّ تهديد، وحين ينمو الريش الأوّل المقاوِم تحين أجمل مراحل الرحلة: تعليم الفراخ الطيران في سماء بيثكايا.

غاصت كِنغَه برأسها كي تمسك بالرنجة الرابعة، لذلك لم تسمع نعيب الخطر الذي هزَّ الهواء:

ـ خطر من جهة الميمنة! إقلاع طوارئ!

حين أخرجت كِنغَه رأسها من الماء وجدت نفسها وحيدة في هول المحيط.

2

قطٌّ كبيرٌ، أسود وسمين

ـ يحزنني كثيراً أن أتركَكَ وحيداً ـ قال الطفلُ وهو يداعبُ ظهرَ القطِّ الكبير، الأسود والسمين.

تابع بعدها مهمّة وضع الأشياء في مزودته. يأخذُ شريط تسجيل لمجموعة بور، وهو واحدٌ من أشرطته المفضّلة. يتردّدُ، يخرجه، لا يعلم هل يعيده إلى المزودة أم يتركه على الطاولة الصغيرة. كان صعباً عليه اتخاذ القرار بما يأخذه معه في العطلة وبما يترك في البيت.

كان القطُّ الكبيرُ، الأسود والسمين ينظرُ إليه باهتمام، وهو يجلس على إفريز النافذة، مكانه المفضّل.

ـ هل خبّأت نظارةَ السباحة؟ يا ثورباس، هل رأيت نظارة سباحتي؟ لا، لا تعرفها لأنّك لا تحبُّ الماء. لا تدري كم تخسر. السباحة إحدى أكثر الرياضات تسلية. هل تريدُ بعض البسكويت؟ ـ عرض عليه الطفلُ وهو يأخذ علبةَ بسكويت القطط.

قدّم له كميّة أكثر من سخيّة فبدأ القطّ الكبيرُ، الأسودُ والسمينُ يمضغه ببطء كي يطيل متعته. ما ألذّه من بسكويت، يُطقطق وله طعم السمك!

«إنّه صبيّ عظيم» فكّرَ القطُّ مملوء الفم «صبيّ عظيم؟ بل أفضل صبيّ!» صحّح وهو يبلع.

كان لثورباس القطُّ الكبير، الأسودُ والسمين أسبابه الجيّدة كي يفكّرَ بهذا الشكل عن الطفل الذي لم يكن ينفقُ نقوده الشهرية على ذلك البسكويت اللذيذ وحسب، بل يحافظ له على نظافة صندوق الحُصيات حيث يريحُ جسده ويدرّبه بالكلام معه عن أشياء مهمّة.

كانا يقضيان معاً ساعاتٍ كثيرةً في الشرفة يتأملان الحركةَ المتواصلة في مرفأ هامبورغ ويقول له الطفل مثلاً:

- هل ترى تلك السفينة؟ هل تدري من أين جاءت؟ من ليبريا، البلد الأفريقي المهم جدّاً لأنّ مؤسّسيه ناسٌ كانوا عبيداً. حين أكبر سأصبح قبطاناً لسفينة شراعية كبيرة وسأذهب إلى ليبريا. وستذهب معي، يا ثورباس. ستصبحُ قطَّ بحرٍ جيّداً. أنا واثق من ذلك.

كان يحلمُ ككل صبية المرفأ بأسفارٍ إلى بلادٍ بعيدة. والقطّ الكبيرُ، الأسودُ والسمين يصغي إليه وهو يهرّ ويرى نفسه على ظهر سفينة شراعية تمخر عباب البحار.

بلى، كان القطّ الكبيرُ، الأسودُ والسمين يشعر بودٍّ كبيرٍ تجاه الطفل ولا ينسى أنّه مدينٌ له بحياته.

صار ثورباس مديناً له بذلك الدَّين، تماماً في اليوم الذي غادر فيه السلّة التي شكّلت مسكنه مع أخوته السبعة.

كان حليبُ أمّهِ دافئاً وحلواً، لكنّه أرادَ أن يجرّب واحداً من رؤوس السمك التي يعطيها أهلُ السوق للقطط الكبيرة. ولم يفكّر بأكله كاملاً، ففكرته كانت في أن يجرجره حتى السلّة ويموء هناك لأخوته:

ـ كفانا مصّاً لأمّنا المسكينة! ألا ترين كيف صارت هزيلةً؟ كلي سمكاً فهو غذاء قطط المرفأ.

ماءت له أمّه قبل أيامٍ قليلة من مغادرته السلّة بجدّيّة كبيرة:

ـ أنت رشيق، ويقظ، وهذا شيءٌ جيّد، لكن عليك أن تنتبه إلى حركاتك فلا تخرج من السلّة. غداً أو بعدَ غدٍ يأتي البشر ويقرّرون مصيرك ومصير أخوتك. بالتأكيد سيسمونها بأسماء ظريفة، وسيوفرون لها الطعام. حظّها سعيد أنّها ولدت في مرفأ، ففي المرافئ يحبون القطط ويحمونها. الشيء الوحيد الذي يأمله منّا البشرُ هو الإبقاء على الفئران بعيدة. بلى، يابُني. حظّ سعيد أن يكون القطّ قطّ مرفأ، لكن عليك أنت أن تكون حذراً لأنّ فيكَ شيئاً يمكن أن يجعلك شقيّاً. لو نظرتَ، يا بُنيّ إلى أخوتك لوجدت أنّها جميعاً رماديّة وجلدها مخطّط مثل النمور. بينما ولدت أنت أسودَ تماماً، باستثناء هذه الخصلة البيضاء التي تتباهى بها تحت ذقنك. هناك بشر يعتقدون أنّ القطط السوداء تجلبُ الحظّ السيّئ، لذلك عليك ألاّ تخرجَ من السلّة.

لكنّ ثورباس الذي كان آنذاك مثل كُرَيّةٍ سوداء غادر السلّة. أراد أن يجرّب واحداً من رؤوس السمك. كما أراد أن يرى قليلاً من العالم.

لم يصل بعيداً. فقد مرّ، وهو يهرول رافعاً ومحرّكاً ذيله تماماً باتجاه أحد محلات السمك، بطائر كبيرٍ غافٍ ورأسه

جانباً. كان طائراً قبيحاً جدّاً وله حوصلة هائلة تحت منقاره. وسرعان ما شعر القطُّ الصغير بسيقانه تبتعد عن الأرض ليجد نفسه دون أن يفهم ما كان يجري وهو يتخبّط في الهواء. بحث وقد تذكّر بعض تعليمات أمّه الأولى عن مكان يسقط فيه على قوائمه الأربع، لكن الطائر كان ينتظره في الأسفل بمنقاره المفتوح. سقط في الحوصلةِ شديدةِ الظلمة وفظيعة الرائحة.

ـ دعني أخرج! دعني أخرج! ـ ماءَ يائساً.

ـ هاه، وتستطيع الكلام ـ نعب الطائرُ دون أن يفتح منقاره ـ أيُّ حشرة أنت؟

ـ إمّا أن تتركني أخرج أو أنّني سأخدشك! ـ ماءَ مهدّداً.

ـ أشكّ أن تكون ضفدعاً. هل أنت ضفدع؟ ـ سأل الطائر مغلقَ الفم دائماً.

ـ إنّني أختنق، أيّها الطائر الأحمق! ـ صرخَ القطّ الصغير.

ـ بلى، أنت ضفدع. ضفدع أسود. يا للغرابة.

ـ بل أنا قطّ وشرس. اتركني أخرج وإلا ندمت! ـ ماءَ الصغيرُ ثورباس باحثاً عن مكان في الحوصلة المظلمة ينشب فيه مخالبه.

ـ هل تظنّني لا أميّز القطّ من الضفدع؟ القطط مشعرة، سريعة ولها رائحة خفّ. أنت ضفدع. أكلتُ مرّة عدداً من الضفادع ولم تكن سيئة، لكنّها كانت خضراء. اسمع، تُراك ضفدعاً ساماً؟ ـ نعب الطائر مشغولاً.

ـ بلى! أنا ضفدعٌ سام وأجلب فألَ السوء!

ـ يا له من برهان ذي حدّين! فقد بلعتُ ذات مرّةٍ قنفذاً سامّاً

ولم يُحدث لي شيء. يا له من برهان ذي حدّين! هل أبلعك أم أبصقكَ؟ ـ فكّر الطائر، لكنّه لم ينعب أكثر لأنّه ارتعش، خفق بجناحيه وفتح منقاره أخيراً.

أطلّ ثورباس الصغير برأسه وقد تبلّل تماماً باللعاب وقفز إلى البرّ. عندئذٍ رأى الطفلَ يمسك الطائر من عنقه ويهزّه.

ـ لا بدّ أنكِ عمياء، أيتها البجعة البلهاء! تعال أيّها القطّ الصغير. كدت تنتهي إلى كرش هذا الطائر القبيح ـ قال الطفل وأخذه بين ذراعيه.

هكذا بدأت تلك الصداقة التي مضى عليها خمس سنوات.

أبعدته قبلةُ الطفل على رأسه عن الذكريات. رآه يسوّي وضع المزودة ويسير حتى الباب ويودّعه من هناك من جديد.

ـ سنرى بعضنا بعضاً خلال أربعة أسابيع. سأفكّرُ بك كلّ يوم يا ثورباس. أعدُك بذلك.

ـ وداعاً، يا ثورباس، وداعاً أيها السمين! ـ ودّعه أخوا الطفل الصغيران.

سمع القطّ الكبيرُ، الأسودُ والسمينُ كيف راحا يغلقان الباب بمفتاح مزدوج فهُرع إلى النافذة التي تطلّ على الشارع ليرى الأسرة التي تبنته قبل أن تبتعد.

تنفّس القطّ الكبيرُ، الأسودُ والسمينُ، بسرور، فهو سيكون سيّد وصاحب الشقّة أربعةَ أسابيع، وسيذهب صديق للأسرة ليفتح له علبة طعام وينظف له صندوق الحصيات. أربعة أسابيع يتكاسل فيها على الأرائك و الأسرّة أو يخرج إلى الشرفة، يتسلّق السطح، ويقفز من هناك إلى أغصان شجرة الكستناء العجوز

ويهبط الجذعَ إلى الفناء الداخلي حيث اعتاد أن يجتمع مع قطط الحيِّ الأخرى. لن يملّ أبداً.

هكذا كان يفكِّرُ ثورباس، القطّ الكبير، الأسود والسمين لأنّه لم يكن يدري ما سيحلّ به في الساعات اللاحقة.

3

هامبورغ أمام النظر

نشرت كِنغه جناحيها كي تشرع بالطيران، لكنَّ الموجة الكثيفة كانت أسرع وغطّتها كاملةً. وحين طفت كان نور النهار قد اختفى، ثمّ وبعد أن نفضت رأسها بقوّة عرفت أنَّ لعنةَ البحار أظلمت عينيها.

غطّست كِنغهْ، النورس فضّية اللون، رأسَها عدّة مراتٍ، إلى أن أدركت ومضاتُ نورٍ بؤبؤيها المغطيين بالنفط. البقعة اللزجة، الوباء الأسود ألصق جناحيها بجسدها، وهكذا راحت تحرّك ساقيها بأمل أن تسبح بسرعة وتخرج من وسط الطاعون الأسود.

أدركت أخيراً حدَّ البقعة النفطية وملامسة الماء النظيف وقد تشنّجت جميعُ عضلاتها بفعل الجهد. وحين تمكّنت بفعل رفرفة أهدابها وتغطيس رأسها أن تُنظّف عينيها، نظرت إلى السماء فلم ترَ إلاّ بعض الغيوم بين البحر وقبّة السماء الهائلة.

كانت زميلاتها في سرب فنار الرمل الأحمر تطيرُ بعيداً، بعيداً جدّاً.

إنّه القانون. كذلك رأت بعض النوارس التي فاجأها المدّ القاتل الأسود، ورغم رغبتها بالهبوط لتقديم مساعدة غير مجدية بقدر ما هي مُحالة فقد ابتعدت محترمة القانون الذي يمنعها من حضور موت زميلاتها.

كانت النوارس التي تجمّدت أجنحتها الملتصقة بجسدها صيداً سهلاً للأسماك الكبيرة، أو للموت البطيء اختناقاً بالنفط الذي بدخوله بين ريشها أغلق جميع مساماتها.

هذا هو الحظّ الذي كان ينتظرها، فرغبت بالاختفاء في حلقوم سمكة كبيرة.

البقعة السوداء. الوباء الأسود. لعنت كِنغَهْ، وهي تنتظر نهايتها المشؤومة، البشرَ.

ـ لكن ليس الجميع. يجب ألاّ أكون ظالمة ـ نعبتْ بوهن.

كثيراً ما رأت من الأعلى كيف كانت بواخر النفط الضخمة تستغلُّ أيّامَ الضباب على الشواطئ كي تتوغل في عمق البحر لتغسل خزّاناتها. تقذف إلى البحر بآلاف الليترات من مادتها اللزجة الوبائية التي تجرفها الأمواج. لكنّها أيضاً كانت ترى أحياناً مراكبَ صغيرة تقترب من بواخر النفط وتمنعها من تفريغ خزاناتها. من المؤسف أنّ تلك السفن التي تحمل لون قوس قزح لم تكن تصل في الوقت المناسب لمنع تسميم البحار.

مرّت كِنغَهْ بأطول ساعات عمرها جاثمة فوق الماء، متسائلة برعبٍ عمّا إذا كان ينتظرها أفظعُ أنواع الموت، لكنّ

الموتَ جوعاً أسوأ من التهام سمكة لها وأسوأ من معاناة ضيق الاختناق.

انتفضت بكاملها أمام فكرة الموت البطيء، فاكتشفت مندهشة أنّ النفط لم يُلصق جناحيها بجسدها. كان ريشها مشبعاً بتلك المادة الكثيفة، لكنّها تستطيع على الأقلّ أن تنشر جناحيها.

ـ ربّما ما زال أمامي إمكانية الخروج من هنا، ثمَّ من يدري فقد تذيبُ الشمسُ النفطَ إذا طرتُ على ارتفاع عالٍ، عالٍ جدّاً ـ نعبت كِنغَة.

خطرت بذهنها قصّة سمعتها من نورسٍ عجوز من جزر فريسياس، تتحدَّث عن كائن بشري يدعى إيكارو، الذي فصّل أجنحةً من ريش النسر رغبةً منه في تحقيق حلمه بالطيران، فطار عالياً على مقربة كبيرة من الشمس التي أذابت حرارتُها الشمعَ الذي لصق به الريش فسقط.

كان النفط اللعين يلصق ريش ذيلها بطريقة يمنعها من تحقيق التحكّم بالهبوط. غطست مرّة أخرى وشدّت بمنقارها طبقة القذارة التي تُغطّي ذيلها. تحمّلت ألم الريش المقتلع، إلى أن تأكّدت أخيراً من أنّ الجزء الخلفيّ كان أقلّ قذارة.

تمكّنت في المحاولة الخامسة من الإقلاع.

راحت تخفق بأجنحتها بيأس، فثقل طبقة النفط لم يكن يسمح لها بالطيران. لحظة راحة واحدة تكفي لأن تهوي. من حسن الحظّ أنّها كانت نورساً شابّة وعضلاتها تتجاوب معها بشكل جيّد.

استطاعت الارتفاع عالياً. نظرت إلى الأسفل دون أن تتوقّف عن الخفق بجناحيها، ورأت الشاطئ المرسوم مثل خطّ أبيض. رأت أيضاً بعض البواخر تتحرّك مثل أشياء صغيرة جدّاً على قطعةِ قماش زرقاء. ارتفعت أكثر لكنّ مفعول الشمس لم يدركها. ربّما كانت أشعتها تنشر حرارة واهنة جدّاً أو أنّ طبقةَ النفط كثيفة أكثر من اللازم.

أدركت كِنغَة أنّ قواها لن تدوم طويلاً فطارت بحثاً عن مكان تهبط فيه متوغّلة فوق البر، متبعة خطّ الفجر الأخضر المتلوي.

راحت حركة جناحيها تزداد ثقلاً وبطئاً. كانت تفقد قواها. ما عادت تطير عالياً جدّاً.

أغمضت عينيها في محاولة يائسة منها للارتفاع مجدّداً وخفقت بجناحيها بآخر ما تبقى عندها من قوّة. لم تدري كم أبقت على عينيها مغمضتين، لكنّها حين فتحتهما كانت تطير فوق برجٍ عالٍ يزيّنه ديك ريح ذهبي.

ـ سان ميغِلْ! ـ نعبت حين تعرّفت على برج الكنيسة الهامبورغية.

لم يطاوعها جناحاها في متابعة الطيران.

4

نهاية طيران

كان القطُّ الكبيرُ، الأسودُ والسمين يتشمّسُ في الشرفة وهو يهرُّ ويفكّرُ كم هو مرتاح هناك متلقياً أشعّة الشمس وكرشه إلى الأعلى، وسيقانه الأربع منكمشة وذيله ممدود.

في اللحظة التي دار فيها بجسده بتراخٍ لتدفّئ الشمسُ ظهره، سمع دوياً يثيره شيءٌ طائر لم يستطع أن يحدِّد هويته وهو يقترب منه بسرعة كبيرة. قفز مذعوراً منتصباً على قوائمه الأربع ولم يكد يتنحّى جانباً قليلاً حتى لمح النورس التي سقطت على الشرفة.

كانت طائراً وسخاً جدّاً. جسدها متشرب بمادّة داكنة، كريهة الرائحة. اقترب ثورباس فحاولت النورس أن تنهض مجرجرة جناحيها.

ـ لم يكن هبوطاً أنيقاً ـ ماءَ.

ـ آسفة. لم أستطع تفادي ذلك ـ اعترفت النورس.

ـ اسمعي، أراكِ في حالة شديدة السوء. ما هذا الذي على جسدك؟ ما أكره رائحته! ـ ماءَ ثورباس.

ـ لقد أدركتني موجة سوداء. الوباء الأسود. لعنةُ البحار. سأموت ـ نعبت النورس متشاكية.

ـ تموتين؟ لا تقولي هذا! أنت متسخة ومنهكة. لماذا لا تطيرين إلى حديقة الحيوان؟ فهي ليست بعيدة من هنا ويوجد فيها بيطريون يمكن أن يساعدوكِ ـ ماءَ ثورباس.

ـ لا أستطيع. كان هذا آخر طيران لي ـ نعبت النورس بصوت غير مسموع وأغمضت عينيها.

ـ لا تموتي! ارتاحي قليلاً وسترين كيف ستسترجعين قواك. هل أنتِ جائعة؟ سأحضر لكِ قليلاً من طعامي، لكن لا تموتي ـ طلب ثورباس هذا مقترباً من النورس المنهكة.

لحس القط رأسها متغلّباً على قرفه. فطعم ما كان يغطي جسمها رهيب. وحين مرَّ بلسانه على عنقها لاحظ أنّ تنفّس الطائر كان في كلّ مرّة أكثر ضعفاً.

ـ اسمعيني، يا صديقتي، أريد أن أُساعدكِ، لكن لا أعرف كيف. حاولي أن ترتاحي ريثما أذهب وأستشير ما الذي يفعلونه لنورس مريض ـ ماءَ ثورباس قبل أن يتسلّقَ السطح.

كان يبتعد باتجاه شجرة الكستناء حين سمع النورس تُناديه.

ـ هل تريدين أن أترك لكِ قليلاً من طعامي؟ ـ اقترح مرتاحاً قليلاً.

ـ سأضعُ بيضةً. سأضعُ بيضةً بآخر ما تبقى لدي من قوّة. يا صديقي القطّ، يُلاحَظُ أنك حيوانٌ طيّبٌ ونبيل المشاعر. لذلك

سأطلبُ منك ثلاثة وعود. هل ستعدني بها؟ ـ نعبت نافضة بارتباك ساقيها في محاولة مخفقة للوقوف.

فكّر ثورباس أنّ النورس المسكينة تهذي وأنّه لا يمكن إلاّ أن يكون شهماً مع طائر في حالة محزنة كحالتها.

ـ أعدكِ بما تريدين. لكن ارتاحي الآن ـ ماءَ مشفِقاً.

ـ لا وقت عندي للراحة. عدني بأنّك لن تأكلَ البيضةَ ـ نعبت النورس فاتحة عينيها.

ـ أعدكِ بألاّ آكل البيضةَ ـ ردّدَ ثورباس.

ـ عِدْني بأنّك ستعتني بها إلى أن يولد الفرخُ. ـ نعبت رافعة عنقها.

ـ أعِدكِ بأن أعتني بالبيضة إلى أن يولد الفرخُ.

ـ وعِدْني بأنّكَ ستعلِّمه الطيران ـ نعبت وهي تنظر بإمعان في عيني القطّ.

عند ذلك افترض ثورباس أنّها لم تكن تهذي وحسب بل وأنّها مجنونة تماماً.

ـ أعدكِ بأن أعلمه الطيران. والآن ارتاحي فسأذهب بحثاً عن مساعدة ـ ماءَ ثورباس وهو يتسلّق السطحَ بقفزة واحدة.

نظرت كِنغَهْ إلى السماء، شكرت كلَّ الرياح التي رافقتها، وتدحرجت بيضة بجانب جسدها المتشرب بالنفط تماماً في اللحظة التي لفظت فيها أنفاسها الأخيرة.

5

بحثاً عن نصيحة

هبط ثورباس عبرَ جذعِ شجرة الكستناء سريعاً، عَبَرَ الفناء الداخلي بكل ما أوتي من سرعة كي يتفادى رؤيةَ الكلابِ الشاردة له. خرج إلى الشارع، تأكّد أنّه ما من سيارة قادمة، عبره وجرى باتجاه الكونتو، مطعم المرفأ الإيطالي.

رآه قطان يتشمّمان سلّة فضلات يمرّ.

ـ هيه، يا صديقي! هل ترى مثلي؟ ياله من سمين جميل! ـ ماءَ أحدهما.

ـ بلى، يا صديقي. وكم هو أسود. ألا يبدو كريّةَ قطران أكثر مما هو كريّةَ دهن؟ ـ سأل الآخر.

على الرغم من أنّ ثورباس كان يمضي مهموماً جدّاً بالنورس إلاّ أنّه لم يكن مستعدّاً لتمرير استفزازات هذين المتبجحين. فتوقّف عن الجري، نفش شعر ظهره ووثب فوق سلّة القمامة.

مطّ قدماً أمامية ببطء، أخرج مخلباً طويلاً مثل عود كبريت وقرّبه من وجه أحد المستفِزّين.

ـ أيعجبكَ؟ إذن عندي تسعٌ أخرى منها هل تريد أن أُجرِّبها في صُلبكَ؟ ـ ماءَ بكلِّ هدوء.

بلع القطّ ريقَه والمخلب أمام عينيه قبل أن يجيب.

ـ لا، يا زعيم. ياله من يوم جميل! ألا يبدو لك ذلك؟ ـ ماءَ دون أن يتوقّف عن النظر إلى المخلب.

ـ وأنت ماذا تقول؟ ـ انتهر ثورباس القطَّ الآخر.

ـ أنا أيضاً أقول إنَّ اليومَ جميل، لطيف للتنزّه، على الرغم من وجود بعض البرد.

تابع ثورباس طريقه، بعد تسوية المشكلة، حتى وصل إلى باب المطعم. في الداخل كان النُّدُلُ يعدّون الطاولات لزبائن الظهيرة. ماء ثورباس ثلاث مرَّاتٍ وانتظر جالساً على البسطة وما هي إلا لحظات حتى اقترب منه سِكرتاريو، وهو قطّ روماني هزيل جدًّا، شاربه لا يكاد يتجاوز الشعرتين. على كلّ جانب من منخريه شعرة واحدة.

ـ متأسفون جدّاً، إذا لم تكن قد حجزت لن نستطيع خدمتك. فالكلّ محجوز ـ ماءَ بطريقة التحية. وكان سيضيف شيئاً آخر، لكنَّ ثورباس أوقفه.

ـ أنا بحاجة لكي أموء مع كولونِلّو، لأمرٍ مستعجل.

ـ مستعجل؟ دائماً عجلة الساعة الأخيرة! سأرى ماذا أستطيع أن أفعل. لكن فقط لأنّ الأمر يتعلق بشيء مستعجل ـ ماءَ سِكرتاريو وعاد إلى داخل المطعم.

كان كولونِلّو قطاً غير محدَّد العمر. بعضهم يقول إنّه بعمر المطعم الذي يؤويه؛ وبعضهم يؤكّد بأنّه أكبر عمراً من ذلك. لكن لم يكن عمره يهمُّ، لأنّه يملك فطنة غريبة لتقديم النصيحة لمن يجد نفسه في مصاعب، ومع أنّه لم يكن يحلّ أيَّ مشكلة إلاّ أنّ نصائحه تجلب الراحة. وكان بحكم شيخوخته وفطنته مرجعاً بين جميع قطط المرفأ.

عادَ سِكرِتاريو مسرعاً.

ـ اتبعني. سيستقبلك كولونِلّو استثناءً ـ ماءَ.

تبعه ثورباس، وصلا إلى باب القبو مارَّين تحت طاولات وكراسي المطعم. هبطا درجات درجٍ ضيق قفزاً فوجدا كولونِلّو في الأسفل يراجع فلينات بعض قناني الشامبانيا.

ـ بؤس قذر! لقد قرضت الفئران فلين أفضل شامبانيا المحلّ. ثورباس! صديقي الغالي! ـ حيّاه كولونِلّو، الذي اعتاد أن يموء ببعض الكلمات بالإيطالية.

ـ اعذرني لأنّني أزعجك في أوج عملك، لكن عندي مشكلة خطيرة وأحتاج إلى نصائحك ـ ماءَ ثورباس.

ـ أنا في خدمتك، يا صديقي الغالي! يا سِكرتاريو! قدّم لصديقي الغالي قليلاً من هذه المعجنات بالفرن التي أعطوها لنا في الصباح ـ أمر كولونِلّو.

ـ لكنّه أكلها كلّها! لم يتركني حتى أشمّها! ـ اشتكى سِكرِتاريو.

شكره ثورباس، فهو لم يكن جائعاً وحكى على الفور حادث النورس، حالها المحزن والوعود التي وجد نفسه مجبراً

على قطعها لها. استمع القطّ العجوز بصمت. ثمّ فكّر وهو يداعبُ شاربيه الطويلين وماءَ أخيراً بقوّة:

- بؤس قذر! يجب أن نساعد هذه النورس المسكينة كي تستطيع معاودة الطيران.

- بلى، لكن كيف؟ - ماءَ ثورباس.

- من الأفضل استشارة عارف كلّ شيء - أشار سِكرِتاريو.

- هذا تماماً ما كنت سأقترحه. لماذا سيسحبُ هذا موائي من فمي؟ - صاح كولونِلّو.

- نعم، إنَّها فكرة جيِّدة. سأذهب لمقابلة عارف كلّ شيء - ماءَ ثورباس.

- سنذهبُ جميعاً. فمشاكل أيِّ قطٍّ في المرفأ هي مشاكل جميع قططه - صرّح كولونِلّو بوقار.

خرجت القطط الثلاثة من القبو وعبرت متاهة الفناءات الداخلية للبيوت المصطفّة أمام المرفأ، وجرت باتجاه معبد عارف كلّ شيء.

6

مكان غريب

كان عارف كلّ شيء يعيشُ في مكانٍ يصعب على الوصف، لأنّه يمكن أن يكون من النظرة الأولى دكاناً غير مرتبة لأشياء غريبة، متحفاً للغرائب، مستودعاً لآلات معدومة، مكتبة لا مثيل لفوضاها في العالم أو مِخبراً لعالِم مخترع لمصنوعات محال تسميتها. لكنّه لم يكن شيئاً من هذا أو بالأحرى كان أكثر من كلّ هذا.

كان المكانُ يدْعى هاري ـ بازار المرفأ، وكان صاحبه هاري ذئباً عجوزاً من ذئاب البحر لخمسين سنة من الإبحار في البحار السبعة، كرّس نفسه لجمع كلّ أنواع الأشياء من مئات المرافئ التي عرفها.

قرّر هاري، حين حطّت الشيخوخة في عظامه، أن يغيّر حياة البحّار إلى حياة البحّار على البرّ، فتح البازار بكل الأغراض التي جمعها. استأجر بيتاً من ثلاثة طوابق في أحد شوارع المرفأ، لكنّه سرعان ما صار صغيراً لعرض

المجموعات الفريدة، فاستأجر البيت الملاصق ذا الطابقين ومع ذلك لم يكفِه. أخيراً وبعد استئجار بيت ثالث، تمكّن من وضع جميع أشيائه، مرتبة لكن بحسب مفهوم خاصٍّ جدّاً للترتيب.

كان يوجد في البيوت الثلاثة التي تربط بينها ممراتٍ وأدراج ضيقة قرابة مليون غرض، يمكن أن نميِّز بينها: 7200 قبّعة لدنة الرفراف كيلا تحملها الريح، 160 دولاب قيادة بواخر دائخة من كثرة ما دارت في العالم، 245 فنار مراكب تحدَّت أكثر الضباب كثافة؛ 12 تلغراف قيادة ساطتها أيادي قباطنة غضبى؛ 256 بوصلة لم تتهْ قط عن الشمال؛ ستة فيلة خشبية بالحجم الطبيعي؛ زرافتين محنطتين في وضعية تأمّل للسهوب؛ دباً قطبيّاً ترتاحُ على بطنه اليدُ اليمنى، المحنّطة أيضاً، لكشّاف نرويجي، 700 مروحة تذكّر شفراتها حين تدور بنسائم المساءات الاستوائية الرطبة؛ 1200 شبكة جوت للنوم، ضمت أفضل الأحلام؛ 1300 دمية سومطرية لم تلعب غير أدوار الحبّ؛ 123 جهاز عرض شرائح ضوئية تعرض مناظر دائماً يمكن للمرء أن يكون فيها سعيداً؛ 54000 رواية بستٍّ وأربعين لغة؛ نسختين من برج إيفل، صنع أوّلهما من نصف مليون دبوس خياطة وثانيهما من ثلاثمئة ألف مسواك؛ 3 مدافع بواخر قرصنة إنكليزية، 17 مرساة عُثر عليها في أعماق بحر الشمال؛ 2000 لوحة غروب شمس؛ 17 آلة كاتبة كانت لكتّاب مشاهير؛ 128 سروالاً طويلاً من الفانيلا لرجال يتجاوز طولهم المترين؛ 7 بدلات أقزام رسمية، 500 غليون زبد بحر، اسطرلاباً مصمماً على الإشارة إلى صليب الجنوب؛ سبع محارات عملاقة تذكّر بصدى غرق أسطوري؛ 12 كيلومتراً من الحرير الأحمر؛

بابي غوّاصتين أرضيين وأشياء أخرى كثيرة سيطول ذكرها.

ولزيارة البازار كان يجب دفع ثمن تذاكر، ويحتاج المرء في الداخل إلى إحساس بالاتجاه كيلا يضيع في غرفٍ بلا نوافذ، وممراتٍ طويلة وأدراج ضيقة.

كان عند هاري تميمتان: ماتيّاس، وهو شمبانزي يقوم ببيع التذاكر ويراقب الأمن، يلعب بالدامة مع البحار العجوز ـ طبعاً بشكل سيّئ جداً ـ ، يشرب البيرة ويحاول دائماً أن يعيد المتبقي. التميمة الأخرى عارف كلّ شيء، وهو قطّ رمادي، صغير الحجم وهزيل، يخصص جلّ وقته لدراسة آلاف الكتب الموجودة هناك.

دخل كولونِلّو وسِكرِتاريو وثورباس إلى البازار بأذنابٍ مرفوعة جدّاً. حزنوا لأنهم لم يروا هاري خلف شباك التذاكر، لأنّ العجوز كان يقول دائماً كلمات لطيفة وعنده نقانق لهم.

ـ لحظة، يا أكياس البراغيث! تنسون دفع ثمن التذاكر ـ زعق ماتياس.

ـ ومنذ متى تدفع القطط ثمن تذاكر؟ ـ احتجّ سِكرِتاريو.

ـ يقول إعلان الباب: «الدخول ماركان» ، وليس مكتوب في أيّ مكان أنّ القطط تدخل مجاناً. ثمانية ماركات وإلا فانصرفي.

زعق الشمبانزي بعنف.

ـ أيّها السيّد القرد، أخشى ألا تكون ضليعاً بالرياضيات ـ ماءَ سِكرِتاريو.

ـ هذا بالضبط ما كنتُ سأقوله. هاأنت تسحبُ موائي من فمي مرّة أخرى ـ اشتكى كولونِلّو.

ـ بلا، بلا، بلا، تدفعين أو تنصرفين ـ هدَّد ماتيّاس.

قفز ثورباس إلى الجانب الآخر من شبّاك التذاكر ونظر بثبات في عيني الشمبانزي. أبقى على نظرته إلى أنّ رفّت أجفان ماتياس وبدأ يدمع.

ـ حسن، الحقيقة هي ستّة ماركات. خطأ يرتكبه أيٌّ كان ـ زعق خائفاً.

أخرج ثورباس مخلباً من ساقه الأمامية اليمنى دون أن يرفع عنه نظره.

ـ هل يُعجبك، يا ماتياس؟ عندي تسعة مثلها. هل تتصوّرها مغروزة في مؤخّرتك الحمراء المكشوفة دائماً؟ ـ ماءَ بهدوء.

ـ سأغضّ الطرف هذه المرّة فقط. يمكنكِ الدخول ـ قَبِلَ الشمبانزي متظاهراً بالهدوء.

اختفت القطط الثلاثة في متاهة الممرات مرفوعة الأذيال فخراً.

7

قطٌّ يعرفُ كلَّ شيء

ـ رهيب! رهيب! حدث شيءٌ رهيب! ـ ماءَ عارفُ كلّ شيء حين رآها تصل.

كان يسير بعصبية أمام كتاب هائل مفتوح على الأرض، ويحمل ساقيه الأماميتين بين الحين والآخر إلى رأسه. يظهر مغموماً حقيقةً.

ـ ما الذي جرى؟ ـ سأل سِكرِتاريو.

ـ هذا بالضبط ما كنتُ سأسأله. يبدو أنَّ سحبَ الهواء من فمي هوس ـ علّق كولونِلّو.

ـ دعك، ليس إلى هذا الحدّ ـ ارتأى ثورباس.

ـ ليس إلى هذا الحدّ؟ شيء رهيب! رهيب! لقد أكلت هذه الفئران اللعينة صفحة كاملة من الأطلس. اختفت خريطة مدغشقر. شيءٌ رهيب! ـ أصرّ عارفُ كلّ شيء وهو يشدّ شاربه.

ـ ذكّرْني، يا سِكرِتاريو، فعليّ أن أنظّم حملة ضدّ قوارض

ماساكار. ماسغاكار، أعني، أنت تعرف ماذا أقصد ـ ماءَ كولونلّو

ـ مدغشقر ـ صحّحَ سِكرتاريو.

ـ استمرّ، استمرّ بسحبِ مواءاتي من فمي. بؤس قذرا ـ صاح كولونِلّو.

ـ سنمدّ إليك يد المساعدة، يا عارفَ كلّ شيء، لكنّنا هنا الآن لوجود مشكلة كبيرة عندنا. وبما أنّك تعرف كثيراً ربّما استطعت مساعدتنا ـ ماءَ ثورباس وحكى له على الفور قصّة النورس الحزينة.

أصغى عارفُ كلّ شيء إليها باهتمام. كان يوافقه بهزات من رأسه وحين عبّرت حركات ذيله بفصاحة عن مشاعره التي أيقظتها عنده مواءات ثورباس، حاول أن يحشره تحت قائمتيه الخلفيتين.

ـ ... وهكذا تركتها في وضع سيّئ جدّاً. ـ ختم ثورباس.

ـ قصّة رهيبة! رهيبة! لنرَ، دعوني أُفكّر: نورس... نفط... نفط... نورس... نورس مريضة. بلى! علينا أن نستشير الموسوعة! ـ هتف سعيداً.

ـ ماذا؟ ـ ماءَت القطط الثلاثة.

ـ الـ مو ـ سو ـ عة. كتاب المعرفة. علينا أن نبحث في المجلّدين السابع والثامن عشر، المنطبقة على حرف النون ـ أشار عارفُ كلّ شيء بحزم.

ـ لننظر إذن في هذه المسووعة، المعموسة، إحم! ـ اقترح كولونِلّو.

ـ الـ مو ـ سو ـ عة ـ همهم سِكرِتاريو ببطء.

ـ هذا ما كنت سأقوله. أتأكّد مرّة أخرى أنّه لا يستطيع مقاومة إغراء أن يسحبَ المواءات من فمي. ـ همهم كولونِلّو.

تسلّق عارفُ كلّ شيء قطعة أثاث ضخمة صفّ عليها كتباً سميكة ذات مظهر جليل، ثم وبعد أن بحث في متنها عن حرف النون ترك المجلدين يسقطان. وهبط حالاً وراح يمرّر الصفحات بمخلب قصير جدّاً ومتآكل من كثرة ما راجع كتباً. لزم القطط الثلاثة صمتاً وقوراً وهم يستمعون إليه، وهو يهمهم بمواءات تكادُ لا تُسمع.

ـ نعم، أعتقد أنّنا نمضي في الطريق الصحيح. شيء مهم. نُوَرَ، نورا، نوران. شيء مهم! اسمعوا هذا، يا أصدقائي: يبدو النسر طائراً رهيباً، رهيباً! يعتبر واحداً من أشرس الجوارح. رهيب! ـ هتفَ عارفُ كلّ شيء متحمّساً.

ـ لا يهمنا ما تقوله عن النسر. نحن هنا من أجل النورس ـ قاطعه سِكرِتاريو.

ـ عفواً. المسألة أنّ الموسوعة بالنسبة إليّ شيء لا يُقاوَم. ففي كلّ مرّة أنظر في صفحاتها أتعلّم شيئاً جديداً ـ اعتذر عارفُ كلّ شيء وتابع مُمرِّراً الكلمات إلى أن وصل إلى ما يبحث عنه.

لكن ما قالته الموسوعة لم يقدّم لهم فائدة كبيرة؛ لأنّ كثيرين عرفوا أنّ النورس الذي يهمّهم ينتمي إلى الجنس الفضي، المسمى كذلك نظراً للون ريشه الفضّي.

كما أن ما وجدوه عن النفط لم يقدهم أيضاً إلى معرفة كيفية مساعدة النورس، على الرغم من أنّهم اضطرّوا لتحمُّلِ

محاضرة عارف كلّ شيء الذي استفاض بالكلام عن حرب النفط التي دارت في الستينات.

ـ بحقٍّ أشواك القنفد! كأنّنا في البداية ـ ماءَ ثورباس.

ـ شيءٌ رهيب! رهيب! لأوّل مرّة تخيّبني الموسوعة ـ اعترف عارف كلّ شيء حزيناً.

ـ وفي هذه المسووعة، المعووسة. يعني، أنت تعرف ما أرمي إليه، ألا توجد نصائح عملية عن كيفية إزالة بقع النفط؟ ـ تساءل كولونِلّو

ـ عظيم! عظيم بشكل رهيب! من هنا كان علينا أن نبدأ الآن. سأناولكم المجلد الثالث حرف الزاي مزيل البقع ـ أعلن عارف كلّ شيء بتفاؤل في الوقت الذي تسلّقَ فيه أثاثَ الكتب من جديد.

ـ هل انتبهت؟ إذا تجنّبت عادة سحب مواءاتي من فمي الكريهة هذه سنعرف ما سنفعل ـ أشار كولونِلّو على سكرتاريو الصامت.

وجدوا في صفحة مزيل البقع كيفيةً إزالة بقع المربى، الحبر الصيني، الدم وشراب العوسج والحلَّ لإزالة بقع النفط.

ـ «يُنظّف السطح المتأثّر بخرقة مبللة بالبنزين.» ها قد وصلنا إلى الحل! ـ ماءَ عارفُ كلّ شيء.

ـ لم نصل إلى شيء. من أي شياطين سنُخرج البنزين؟ ـ دمدمَ ثورباس بمزاج واضح العكر.

ـ إذا لم تخنّي ذاكرتي في قبو المطعم يوجد مرطبان فيه ريشة مغمورة بالبنزين. صرت تعرف، يا سِكرتاريو ماذا عليك أن تفعل ـ ماءَ كولونِلّو.

ـ عفواً، يا سيِّد، لكنَّني لم أفهم فكرتك ـ اعتذر سِكرتاريو.

ـ بسيطة جدّاً: تبلل ذلك بالبنزين بشكل مناسب وبعدها سنهتم بهذه النورس المسكينة ـ أشار كولونِلّو وهو ينظر إلى مكان آخر.

ـ آه لا! هذا فعلاً لا! ولا بشكل من الأشكال ـ احتجّ سِكرتاريو.

ـ أُذكِّرك بأنَّ صحن اليوم يتضمَّن وجبة مضاعفة من السودة بالكريم ـ دمدم كولونِلّو.

ـ وضع الذيل في البنزين! تقول سودة بالكريم؟ ـ دمدم سِكرِتاريو مفجوعاً.

قرّر عارفُ كلّ شيء أن يرافقهم فجرت القطط الأربعة حتى مخرج هاري. وحين رآهم الشمبانزي ، الذي انتهى من شرب البيرة، خصّهم بفواق رنّان.

8

ثورباس يبدأ تنفيذ ما وعد به

هبطت القططُ الأربعةُ من السطح إلى الشرفة ففهمت على الفور أنّها وصلت متأخرة. راقب كولونِلّو وعارفُ كلّ شيءٍ وثورباس باحترام جسدَ النورس الذي فارقته الحياة، بينما سِكرتاريو يهزّ ذيله في الريح كي يزيل عنه رائحة البنزين.

ـ أظنُّ أن علينا أن نجمع الجناحين. فهذا هو ما يُفْعَلُ في مثل هذه الحالات ـ أشار كولونِلّو.

وبتغلبها على القرف الذي يثيره ذلك الكائن المشبع بالنفط ضمّت جناحيه إلى جسده، مكتشفة البيضة البيضاء المبرقشة بالأزرق.

ـ البيضة! لقد استطاعت أن تضع البيضة! ـ هتف ثورباس.

ـ لقد حشرت نفسك في ورطة، يا صديقي الغالي. إنّها ورطة حقيقية! ـ نبّه كولونِلّو.

ـ ماذا سأفعل بالبيضة؟ ـ تساءل ثورباس الذي كان يزداد

قلقاً في كلّ مرّةٍ أكثر.

ـ يمكن أن تُصنع ببيضة أشياء كثيرة. عجّة مثلاً ـ اقترح سِكرتاريو.

ـ آه، بلى! نظرة إلى الموسوعة ستبين لنا كيف نعدّ أفضل عجّة. يظهر الموضوع في الجزء الثالث، حرف الجيم ـ أكّد عارف كلّ شيء.

ـ ولا بشكلٍ من الأشكال! فثورباس وعد النورس المسكينة بالاعتناء بالبيضة والفرخ. ووعدُ شرفٍ يقوم به قطّ من قطط المرفأ يخصّ جميع قططه، بمعنى أنّ البيضة لن تُلمَسَ ـ صرّح كولونِلّو بوقار.

ـ لكنّني لا أعرف كيف أعتني بها! لم يحدث أن عُهد إليّ بالعناية ببيضة! ـ ماءَ ثورباس بيأس.

وعندئذ نظرت جميع القطط إلى عارفِ كلّ شيء. فلربّما وجدَ في مَو ـ سو ـ عته شيئاً يتعلّق بالأمر.

ـ عليّ أن أعود إلى الجزء الثاني، حرف الباء. بالتأكيد هناك كل ما يجب أن نعرفه عن البيضة، لكنّني أنصح آنياً بالحرارة، حرارة الجسم، بكثير من حرارة الجسم ـ أشار عارف كلّ شيء بنبرة متحذلقة وتعليمية.

ـ يعني الاستلقاء بجانب البيضة، لكن دون كسرها ـ نصح سِكرِتاريو.

ـ هذا بالضبط ما كنتُ ساقترحه. ابق بجانب البيضة، ياثورباس، وسنرافق نحنُ عارفَ كلّ شيء لنرى ما تقوله لنا المسووعة. المعوُوسة. يعني تعرف ما أقصد إليه. سنعودُ ليلاً

بالمستجدات وسنواري هذه النورس المسكينة التراب - أوصى كولونِلّو قبل أن يقفز إلى السطح.

تبعه عارف كلّ شيء وسِكرِتاريو. بقي ثورباس في الشرفة مع البيضة والنورس الميتة. استلقى بكلّ حذر وسحب البيضة إلى أسفل كرشه. شعر بنفسه مضحكاً. فكّر بالاستهزاء الذي سيخصّه به القطّان الشريران اللذان واجههما صباحاً.

لكنّ الوعدَ وعدٌ، وهكذا راح يغفو تحت أشعة الشمس الدافئة والبيضة المنقّطة بالأزرق ملتصقة ببطنه الأسود.

9

ليلة حزينة

حفر سِكرتاريو وعارفُ كلّ شيء وكولونِلّو حفرةً عند جذع شجرة الكستناء تحت ضوء القمر. وكانت قد قذفت قبل قليل بالنورس الميتة من الشرفة إلى الفناء الداخلي، محاولة ألا يراها إيّ كائن بشري. وضعتها بسرعة في الفجوة وغطتها بالتراب. وعند ذلك ماءَ كولونِلّو بنبرة وقورة:

ـ أيّها الرفاق القطط، في هذه الليلة المقمرة نودّع جثمان نورس بائسة لم نعرف حتى اسمها. الشيء الوحيد الذي استطعنا معرفته وبفضل الرفيق عارف كلّ شيء هو أنّها كانت تنتمي إلى جنس النوارس الفضيّة، وأنّها ربّما جاءت من مكان قصيٍّ، من حيث يجتمع النهر بالبحر. قليل هو ما عرفناه عنها، لكن المهم أنّها وصلت مُحتَضَرَة إلى بيت ثورباس، وهو واحد منّا ووضعت ثقتها فيه. وعدها ثورباس بالعناية بالبيضة التي وضعتها قبل أن تموت، وبالفرخ الذي سيولد منها وأصعب ما في الأمر ، أيّها الرفاق، هو أنّه وعدها بتعليمه الطيران.

ـ الطيران. سآخذ المجلد التاسع، حرف الطاء ـ سمعت القطط عارف كلّ شيء يهمهم.

ـ هذا هو بالضبط ما كان سيقوله السيّد كولونِلّو. لا تسحب مواءه من فمه ـ نصح سِكرتاريو.

ـ وعود صعبة التنفيذ ـ تابع كولونِلّو ـ لكنّنا نعرف أنّ أيّ قطٍّ في المرفأ يفي دائماً بمواءاته. ولكي نساعده بتحقيق ذلك آمرُ الرفيق ثورباس بألاّ يُغادِر البيضة حتى يولدَ الفرخ ويعود عارفُ كلّ شيء إلى مسووعته . معووسته. يعني تلك الكتب ويراجع كلّ ما فيها حول فنّ الطيران. والآن لنقل وداعاً لهذه النورس ضحية الكارثة التي سبّبها البشرُ. ولنمطّ أعناقنا إلى القمر ونموء بنشيد وداع قطط المرفأ.

راحت القطط الأربعة عند جذع شجرة الكستناء العجوز تموء بابتهالات حزينة، وسرعان ما انضمّت إلى مواءاتها مواءاتُ قطط أخرى في الجوار، وبعدها مواءات قطط الضفّة الأخرى من النهر، وانضمّت إلى المواءات نباحاتُ الكلاب وصداح الكناريات الحبيسة المحزن، وعصافير الدوري في أعشاشها، ونقيق الضفادع الحزين بل وحتى زعيق الشمبانزي ماتياس الشاذ.

اشتعلت أنوار جميع بيوت هامبورغ، وتساءل في تلك الليلة جميع سكّانها علامَ ذلك الحزن الغريب الذي تمكّن فجأة من جميع الحيوانات.

القسم الثاني

1

قطٌّ حاضن

أمضى القطُّ الكبيرُ، الأسودُ والسمين، أياماً كثيرة مستلقياً بجانب البيضة، يحميها، يقرِّبها بكلِّ نعومة بساقيه الأماميتين المشعرتين في كلِّ مرّة يبعدها فيها بحركة غير إرادية من جسمه سنتيمترين أو أكثر قليلاً. كانت أيّاماً طويلة ومزعجة بدت له أحياناً غير مجدية، حتى بدا له أنّه يعتني بشيء لا حياة فيه، بنوع من الحجارة الهشّة وإن كانت بيضاء ومنقّطة بالأزرق.

شعر مرّة وقد خدّره عدم الحركة، حيث كان عليه بناء على أوامر كولونِلّو ألاّ يُغادِر البيضة إلا للذهاب إلى الطعام ولزيارة صندوق الحصيات الذي يقضي فيه حاجاته، بإغراء أن يتأكّد مما إذا كان ينمو في داخل تلك الكُريّة الكلسية فرخ نورس. عندئذٍ قرّب أذناً من البيضة، ثم أخرى، لكنه لم يتمكّن من سماع شيء. كما لم يُحالفه الحظّ حين حاول أن يرى ما بداخل البيضة بوضعها في مواجهة النور. فالقشرة البيضاء ذات

النقاط الزرقاء كانت سميكة ولا تسمح بأن يُشفَّ منها شيء.

كان كولونِلّو وسِكرِتاريو وعارفُ كلّ شيء يزورونه كلّ ليلة، وتُفحص البيضة ليتأكدوا ممّا إذا كان يتمّ فيها ما يسميه كولونِلّو «بالتطورات المنتظرة»، لكن ما إن كانت القطط ترى أن البيضة باقية على الحال الذي كانت عليه في اليوم الأوّل حتى تبدّل موضوعَ الحديث.

لم يكن عارف كلّ شيء يكفّ عن الشكوى من أنّ موسوعته لا تشير إلى مدّة الحضانة الدقيقة: المعلومة الأكثر دقّة التي استخرجها من كتبه السميكة هي أنها يمكن أن تدوم من سبعة عشر إلى ثلاثين يوماً، بحسب ميزات الجنس الذي تنتمي إليه النورس الأم.

لم تكن الحضانة سهلة بالنسبة للقطّ الكبير، الأسودِ والسمين. لم يكن يستطيع أن ينسى الصباح الذي اعتبر فيه صديق الأسرة المكلّف بالعناية به أنّ غباراً زائداً عن الحدّ يتجمّع في الشقّة، وقرّر أن يمرّ عليه بالمكنسة الكهربائية.

في كلّ صباح كان ثورباس يخبئ البيضة خلال زيارة الصديق بين أصص النباتات كي يستطيع أن يُخصص بعضَ الدقائقِ لذلك الرجل الطيب الذي يبدّل له حُصيّات الصندوق، ويفتح له علبةَ طعام. كان يموء له شاكراً ويحكّ جسده بساقيه فيرحل الكائن البشري مردّداً: إنّه قطّ ظريف. لكنّه سمعه يقول في ذلك الصباح، بعد أن رآه يمرّ بالمكنسة الكهربائية على أرض الصالة وغرف النوم:

- والآن دور الشرفة. فهناك بين أصص النباتات يتجمّع أكبر قدر من القمامة.

وما أن سمع صوت تشظّي صحن فواكه إلى ألف شظية حتى هُرع الصديق إلى المطبخ وصرخ من الباب:

ـ هل جُنِنتَ، يا ثورباس؟ انظر ماذا فعلت! اخرج حالاً من هنا، أيّها القط الأبله. لا ينقصك الآن إلا أن تدخل شظية زجاج في قدمك.

يا لها من مسبّة مستحقّة! خرج ثورباس من المطبخ متظاهراً بالخجل الكبير وذيله بين رجليه وهُرِعَ إلى الشرفة.

لم يكن من السهل عليه دحرجة البيضة إلى أسفل السرير، لكنّه تمكّن من ذلك وانتظر هناك حتى انتهى الكائن البشري من عملية التنظيف والرحيل.

كان ثورباس غافياً مساء اليوم العشرين، لذلك لم يشعر بأنّ البيضة تتحرّك ببطء، لكنّها تتحرّك كما لو أنّها تريد أن تتدحرج على الأرض.

أيقظته دغدغة في بطنه. فتح عينيه، فلم يستطع أن يتفادى النطّ حين رأى أنّه تظهر وتختفي من شقٍّ في البيضة نقطةٌ صغيرة صفراء.

أخذ ثورباس البيضة بين ساقيه الأماميتين، ورأى كيف كان الفرخ ينقرها حتى فتح فتحة أطلّ منها برأسه الصغير الأبيض والرطِب.

ـ ماما! ـ نعب فرخ النورس.

لم يعرف ثورباس بماذا يجيب. كان يعرف أنّ لون جلده أسود، لكنّه ظنّ أن التأثر والحرّ حولاه إلى قطٍّ ليلكي اللون.

2

ليس من السهل أن يصير الكائن أمّاً

- ماما! ماما! - عاد الفرخ لينعب وقد صار خارج البيضة. كان أبيض مثل الحليب وريشات دقيقة، ومتباعدة وقصيرة تغطي جسده قليلاً. حاول أن يخطو بعض الخطوات فخرّ عند مخلب ثورباس.

- ماما! أنا جائع! - نعب وهو ينقره من جلده.

ماذا سيعطيه ليأكل؟ فعارفُ كلّ شيء لم يموّ له بشيء حول هذا الموضوع. كان يعرف أنّ النوارس تتغذّى على الأسماك، لكن من أين سيأتيه بقطعة سمك؟ هُرع ثورباس إلى المطبخ وعاد مُدحرجاً تفاحة.

نهض الفرخ على رجليه المترجرجتين وانقضّ على الثمرة. لامس المنقار الصغير والأصفرُ القشرة، فانثنى كأنه من مطاط، وحين انتصب من جديد قذف بالفرخ إلى الخلف وجعله يسقط.

ـ أنا جائع! ـ نعب حانقاًـ ماما! أنا جائع!

حاول ثورباس أن يجعله ينقر حبّة بطاطا، بعضَ بسكويتاته ـ بوجود الأسرة في إجازة لم يكن هناك الكثير للاختيار! ـ متأسفاً لأنّه ترك صحن طعامه فارغاً قبل ولادة الفرخ. كلّ شيء كان عبثاً. فالمنقار الصغيرُ طريٌّ جدّاً وينثني باحتكاكه بحبّة البطاطا. عندئذ تذكّر والقنوط يلفّه بأنّ الفرخ طائرٌ، وبأن الطيور تأكل الحشرات.

خرج إلى الشرفة وانتظر بصبر أن تقف ذبابة في متناول مخالبه. لم يتأخّر في صيد واحدة أعطاها للجائع.

أخذ الفرخ الذبابة بمنقاره، ضغطها، أغمض عينيه وبلعها.

ـ طعام طيّب! أريدُ أكثر، ماما، أريد أكثر ـ نعب بحماس.

كان ثورباس ينطّ من طرف إلى آخر في الشرفة. جمع خمس ذبابات وعنكبوتاً حين وصل إلى مسمعه صوت القطّين المتبجحين المعروفين، اللذين واجههما منذ عدّة أيام، من سطح البيت المقابل.

ـ انظر، يا رفيق. فالسمين يقوم بتمارين رياضية موقّعة. باستطاعة من يملك مثل جسمه أن يكون راقصاً ـ ماءَ واحد منهما.

ـ أنا أظنّ أنه يمارس aerobic . ما ألذه من سمين! ما أرشقه. يالأسلوبه. اسمع يا كرة الشحم، هل ستتقدّم إلى مسابقة للجمال؟ ـ ماءَ الآخر.

كان المتبجحان يتضاحكان في مأمن على الجانب الآخر من الفناء.

تمنّى ثورباس من كلّ قلبه لو يجرّب بهما حدّ مخالبه، لكنّه كان بعيداً فاضطرّ للعودة إلى الجائع ومعه غنيمة من الحشرات.

التهم الفرخ الذبابات الخمس، لكنّه رفض أن يجرّب العنكبوت. ثم فاق راضياً وانكمش ملتصقاً تماماً ببطن ثورباس.

ـ أنا نعس يا ماما! ـ نعب.

ـ اسمع، أنا آسف، لكنّني لستُ أمّك ـ ماءَ ثورباس.

ـ طبعاً أنت أمي. بل وأم طيبة جدّاً ـ ردّ مغمضاً عينيه.

وحين وصل كولونِلّو وعارفُ كل شيء وسِكرِتاريو وجدت الفرخَ نائماً بجانب ثورباس.

ـ مبروك! إنّه فرخ جميلٌ جدّاً. كم كان وزنه حين وُلِدَ؟ ـ سأل عارفُ كلّ شيء.

ـ ما هذا السؤال؟ فأنا لست أمَّ هذا الفرخ! ـ تنصّل ثورباس.

ـ هذا هو ما يُسأل دائماً في مثل هذه الحالات. لا تأخذ على خاطرك. فعلاً إنّه فرخ جميل جدّاً. ـ ماءَ كولونِلّو.

ـ شيء رهيب! شيء رهيب! ـ هتف عارفُ كلّ شيء حاملاً ساقيه الأماميتين إلى فمه.

ـ وهل تستطيع أن تقول لنا ما هو هذا الشيء الرهيب؟ ـ سأله كولونِلّو.

ـ ليس لدى الفرخ ما يأكله. شيءٌ رهيب! رهيب! ـ أصرّ عارفُ كلّ شيء.

ـ معك الحق. اضطُرِرت لأن أعطيه بعض الذبابات وأظنّ أنه سرعان ما يريد أن يأكل من جديد ـ اعترف ثورباس.

ـ ما الذي تنتظره، يا سِكرِتاريو؟ ـ سأل كولونِلّو.

ـ اعذرني، يا سيّد، لكنني لا أُتابعك ـ اعتذر سِكرِتاريو.

ـ اجرِ إلى المطعم وعُدْ بسردينة ـ أمر كولونِلّو.

ـ ولماذا أنا، هه؟ لماذا علي أن أكون دائما القط الذي يُرسَل، هه؟ أنا من عليّ أن أبلّل ذيلي بالبنزين، وأذهب للمجيء بقطعة سردين. لماذا أنا دائماً، هه؟ ـ احتجّ سِكرتاريو.

ـ لأنّنا سنتعشى هذه الليلة حبّاراً على الطريقة الرومانية ألا يبدو لك هذا سبباً وجيهاً. ـ أشار كولونِلّو.

ـ ما زالت رائحة البنزين الكريهة في ذيلي. هل قلت حبّاراً على الطريقة الرومانية.؟ ـ سأل سِكرتاريو قبل أن يتسلّق صندوق القمامة.

ـ ماما! من هؤلاء؟ ـ نعب الفرخ مشيراً إلى القطط.

ـ ماما! قال لك ماما! رهيبٌ كم هو رقيق! ـ أدرك عارفُ كلّ شيء، وقال قبل أن تنصحه نظرة ثورباس بأن يغلق فمه.

ـ حسن، يا صديقي الغالي، لقد وفيت بوعدك الأوّل وأنت تفي الآن بالثاني ولم يبق أمامك غير الثالث ـ أعلن كولونِلّو.

ـ الأسهل: تعليمه الطيران ـ ماءَ ثورباس ساخراً.

ـ سنتمكّن من ذلك. فأنا سأراجع الموسوعة لكن المعرفة تستغرقُ وقتاً ـ أكّد عارفُ كلّ شيء.

ـ ماما! أنا جائع! ـ قاطعه الفرخ.

3

الخطر يقترب

بدأت التعقيدات في اليوم الثاني من الولادة. اضطرَّ ثورباس للعمل بجهدٍ شديد كي يمنع صديق العائلة من اكتشافه. ما إن سمع الباب يُفتح حتى قلب أصيصاً فارغاً فوق الفرخ وجلس فوقه. لحسن الحظّ أنّ الرجل لم يخرج إلى الشرفة، ولم يكن نعيبُ الاحتجاج يصلُ إلى المطبخ.

نظّف الصديقُ الصندوقَ كما يفعل دائماً، فتح علبةَ طعامٍ وأطلَّ على الشرفة قبل أن يُغادِر.

ـ آملُ ألاّ تكون مريضاً، يا ثورباس. هذه هي المرّة الأولى التي لا تُهرَع فيها حين أفتح علبة. ماذا تفعل جالساً على الأصيص؟ أيّ شخص سيظنّ أنك تُخفي شيئاً. حسناً إلى اللقاء غداً، أيُّها القطُّ المجنون.

وماذا لو خطر له أن ينظر تحت الأصيص؟ مجرّد التفكير بهذا جعل بطنه يرتخي فاضطُرّ للجري نحو الصندوق.

بقي هناك مرفوعَ الذيل، شاعراً بالراحة ومتفكّراً بكلمات الرجل.

«أيّها القطُّ المجنون» هكذا ناداه. «أيُّها القطّ المجنون».

ربّما هو على حقٍّ، لأنّه كان من الأكثر عمليّة أن يترك الفرخ يظهر. فلا بدّ أن الصديق كان سيفكّر بأنّه يهدف إلى أكله، ولكان حمله معه للعناية به حتى يكبر. لكنّه أخفاه تحت أصيص. تراه كان قطّاً مجنوناً؟

لا. ولا بشكلٍ من الأشكال. فثورباس كان يتبع نظام قطط المرفأ الداخليّ بحزمٍ؛ فهو قد وعد النورس المحتَضَرَة بأن يعلّم الفرخ الطيران وسيفي بذلك. لا يعرف كيف لكنّه سيفعل.

كان ثورباس قد أخفى وسخه بوعي حين جعله نعيب الفرخ المفزع يعود إلى الشرفة.

ما رآه هناك جمّد دمه.

كان القطّان المتبجحان مستلقيان أمام الفرخ، يهزّان ذيليهما مستثارين ويمسكه واحد منهما بمخلبه فوق الذيل. لحسن الحظ أنّهما كانا يديران له ظهريهما ولم يرياه يصل. شدّ ثورباس جميع عضلات جسمه.

ـ من كان سيقول إنّنا سنجد إفطاراً رائعاً كهذا، يا صديقي؟ إنّه صغير لكنّه يبدو لذيذاً. ـ ماءَ واحدٌ منهما.

ـ ماما! النجدة! ـ كان الفرخُ ينعب.

ـ أكثر ما أحبّ من العصافير أجنحتها. وهذا جناحاه صغيران، لكنّ فخذيه يبدوان مكتنزين ـ أشار الآخر.

وثَبَ ثورباس. وأخرج في الهواء مخالب قدميه الأماميتين العشرة، وحين سقط بين المكَّارَيْن سحق رأسيهما بالأرض.

حاولا النهوض فخُدشت أذنٌ واحدة عند كل منهما.

ـ ماما! يريدان أن يأكلاني! ـ نعب الفرخُ.

ـ نحن نأكل ابنكِ؟ لا، يا سيّدة. ولا بشكلٍ من الأشكال ـ ماءَ واحدٌ منهما ورأسه ملتصقة بالأرض.

ـ نحنُ نباتيان، يا سيِّدة. نباتيان متشددان. ـ أكَّد الآخر.

ـ لستُ سيدِّة، أيُّها الأبلهان ـ ماءَ ثورباس شادّاً إياهما من أذنيهما، كي يستطيعا رؤيته.

وقف شعرهما حين عرفاه.

ـ عندك ابن جميل جدّاً، أصدق. سيصبح قطّاً عظيماً. ـ أكّد الأوّل.

ـ هذا ما يُرى من بعيد. إنّه قُطيّط جميل جدّاً ـ أكّد الآخر.

ـ ليس قطّاً. إنّه فرخُ نورس، أيّها الأحمقان ـ وضّح ثورباس.

ـ هذا ما أقوله دائماً لصديقي: يجب أن يكون لنا أبناء نوارس. أليس كذلك، يا صديقي؟ ـ أعلن الأوّل.

قرّر ثورباس أن ينهي تلك المهزلة، لكن يجب أن يحمل الوغدان ذكرى من مخالبه. وبحركة عنيفة جمع قدميه الأماميتين فمزّق أذناً من أذني كلٍّ من الجبانين. وليّا الأدبار وهما يموءان من الألم.

ـ لي أمٌّ شجاعة جدّاً! ـ نعب الفرخ.

لاحظ ثورباس أن الشرفة ليست مكاناً آمناً. لكنّه أيضاً لا يستطيع أن يُدخله إلى الشقّة لأنّه سيوسِّخُ كلّ شيء، فيكتشفه صديق العائلة. كان عليه أن يبحث له عن مأوى آمن.

ـ تعالَ، هيا بنا نقوم بنزهة ـ ماءَ ثورباس قبل أن يأخذه بنعومة بين أسنانه.

4

الخطر لا ينقطع

قرّرت القطط خلال اجتماعها في بازار هاري أنّ الفرخ لا يستطيع الاستمرار في شقّة ثورباس. فالمخاطرُ كثيرة ولم يكن أخطرها وجود القطين المتبجحين المهدّد، بل خطر صديق الأسرة.

ـ للأسف أنّ البشر مُباغتون. فكثيراً ما يسببون بنواياهم الحسنة أسوأ الأضرار ـ حكم كولونِلّو.

ـ وهو كذلك. لنفكّر مثلاً بهاري، رجل طيب، رقيق القلب، لكنّ ولأنّه يشعر بالعطف الكبير على الشمبانزي، ويعرف أنّه يحبّ البيرة، لا يكفّ عن منحه القناني في كلّ مرّة يشعر بأنّ القرد عطشان. صار ماتياس المسكين كحوليّاً وفقد الحياء، ويرنّم في كلّ مرّة يسكر فيها أغانٍ رهيبة. رهيبة! ـ ماءَ عارف كلّ شيء.

ـ وماذا نقول عن الأضرار التي يوقعونها قصداً؟ فكّر

بالنورس المسكينة التي ماتت بسبب هوسهم الملعون بتسميم البحار بفضلاتهم ـ أضاف سِكرتاريو.

اتفقوا بعد نقاش قصير على أن يعيش ثورباس والفرخُ في البازار إلى أن يتعلّم هذا الطيران. يذهب ثورباس إلى شقّته كلّ صباح كيلا يستنفر الرجل ثم يعود ليعتني به.

ـ ليس من السوء أن يكون للطائر اسم ـ اقترح سِكرتاريو.

ـ هذا بالضبط ما كنت سأقترحه. أخافُ أن يكون سحبه لمواءاتي من فمي أقوى من قدراته ـ اشتكى كولونِلّو.

ـ أنا موافق. يجب أن يكون له اسم، لكن علينا أن نعرف قبل ذلك ما إذا كان ذكراً أم أنثى ـ ماءَ ثورباس.

ما إن انتهى من المواء حتى أخذ عارف كلّ شيء مجلّداً من الموسوعة عن الرفّ: المجلد الثاني الذي يتناول حرف الجيم، وراح يمرّر صفحاته بحثاً عن كلمة «جنس».

للأسف لا تقول الموسوعةُ شيئاً عن جنس فرخ النورس.

ـ يجب الاعتراف بأنّ موسوعتك لم تفدنا كثيراً ـ اشتكى ثورباس.

ـ لا أقبل تشكيكاً بفعالية موسوعتي! كل المعرفة موجودة في هذه الكتب ـ أجاب عارف كلّ شيء مهاناً.

ـ النورس، طائر بحري. بارلوبِنْتو! بارلوبِنتو هو الوحيد الذي يمكن أن يقول لنا ما إذا كان ذكراً أم أنثى ـ أكّد سِكرِتاريو.

ـ هذا بالضبط ما كنتُ سأموء به. أحظّر عليك أن تسحب مواءاتي من فمي! ـ دمدم كولونِلّو.

بينما كانت القطط تموء راح الفرخ يتنزّه بين عشرات الطيور المحنّطة. كان هناك شحارير، ببغاوات، طوقانات، طواويس، نسور، صقور ينظر إليها مذعوراً. فجأة قطع عليه الطريقَ حيوان أحمر لم يكن محنّطاً.

ـ ماما! النجدة! ـ نعب يائساً.

أوّل من وصل إليه كان ثورباس، وفي الوقت المناسب، ففي تلك اللحظة كان الجرذ يمد قدميه الأماميتين نحو عنق الفرخ.

وما إن رأى الجرذُ ثورباس حتى هرب إلى شقّ مفتوح في الجدار.

ـ أراد أن يأكلني! ـ نعب الفرخُ ملتصقاً بثورباس.

ـ لم نفكّر بهذا الخطر. أظنّ أنه يجب المواء بجدّيّةٍ على الجرذان ـ أشار ثورباس.

ـ موافق. لكن يجب ألاّ نولي أهميّة لقليلات الذوق هذه ـ نصحه كولونِلّو.

اقترب ثورباس من الصدع. كان داخله شديد الظلمة، لكنّه استطاع أن يرى عيني الجرذ الحمراوين.

ـ أريدُ أن أقابل رئيسك ـ ماءَ ثورباس بحزم.

ـ أنا رئيس الجرذان ـ سمع الجرذ يجيبه من الظلمة.

ـ إذا كنت الرئيس، فاعلم أنّ قيمتكم أقلّ من قيمة الصراصير. أخبرْ رئيسك ـ أصرّ ثورباس.

سمع ثورباس الجرذَ يبتعدُ. كانت مخالبه تجعل القساطل

التي ينزلق عليها تصرّ. رأى بعد دقائق قليلة عينيه تظهران في الظلمة.

- سيستقبلك الرئيس. يوجد مدخل في قبو المحار خلف صندوق القرصنة - زعق الجرذ.

نزل ثورباس إلى القبو المشار إليه. بحث خلف الصندوق فوجد ثقباً يستطيع المرور منه. أبعد نسيج العنكبوت ودخل إلى عالم الجرذان، الذي تصدر عنه رائحة رطوبة وقذارة.

- اسلك مجاري مياه الصرف - زعق جرذٌ لم يستطع رؤيته.

أطاعه. ومع تقدّمه مجرجراً جسده كان يشعر بأنّ جلده يتشبّع بالغبار والقمامة.

توغّل في الظلمة حتى وصل غرفة تفتيش مياه صرف لا يكاد يضيئها نور النهار. افترض ثورباس بأنّها تحت الشارع وبأنّ النور يتسرّب عبر طبقات مجرور الصرف. كانت رائحة المكان فظيعة لكنّه مرتفعٌ بما يكفي لكي يستقيم على قوائمه الأربع. في الوسط تجري مياه قذرة. عندئذٍ رأى رئيسَ الجرذان وجسده مليء بالندوب يتسلّى بعدِّ حلقاتِ ذيله بمخلب مِن مخالبه.

- يا عيني، يا عيني! انظروا من يزورنا. القط السمين - زعق رئيس الفئران.

- السمين! السمين! - زعقت عشرات الجرذان، التي لم ير منها ثورباس إلاّ عيونها الحمراء، بصوت واحد.

- أريد أن تتركوا الفرخ بسلام - ماءَ بعنفٍ.

- هكذا إذن للقطط فرخ. كنتُ أعرف هذا. أشياء كثيرة

تُحْكى في البواليع. يُحكى أنّه فرخ لذيذ. لذيذٌ جدّاً! ها ها ها! ـ قهقه رئيس الجرذان.

ـ لذيذٌ جدّاً! ها ها ها! ـ ردّدت بقية الجرذان.

ـ هذا الفرخ تحت حماية القطط ـ ماءَ ثورباس.

ـ وهل ستأكلينها عندما يكبر؟ ودون أن تدعينا؟ أنانية! ـ اتهم الجرذُ.

ـ أنانية! أنانية! ـ ردّدت بقية الجرذان.

ـ لقد قضيتُ، كما تعلم، على جرذان أكثر مما في جسمي من شعر. إذا حدث شيء للفرخ ستكون ساعاتكم محدودة ـ حذّر ثورباس بهدوء.

ـ اسمعْ، يا كرةَ الدهن، هل فكّرت كيف ستخرج من هنا؟ منك نستطيع أن نصنع معجون قطٍّ رائع ـ هدَّد الجرذُ.

ـ معجون قطٍّ! معجون قطٍّ! ـ ردَّدت بقية الجرذان.

وعندئذٍ وثب ثورباس على رئيس الجرذان. وسقط على ظهره ممسكاً رأسه بمخالبه.

ـ توشك أن تفقد عينيك! من الممكن أن يصنع أتباعك مني معجونَ قطٍّ، لكنّك لن تراه. هل ستتركون الفرخَ بسلام؟ ـ هدَّد ثورباس.

ـ ما أسوأ أخلاقك. حسنٌ. لا معجون قطٍّ ولا معجون فرخ. كلُّ شيء يمكن أن تتم مناقشته في البلاليع ـ قَبِلَ الجرذُ.

ـ إذن لنتباحث. ماذا تطلب مقابل احترام حياة الفرخِ؟ ـ سألَ ثورباس.

ـ المرور الحر في الفناء. فقد أمر كولونِلّو بقطع الطريق علينا إلى السوق. المرور الحر في الفناء ـ زعق الجرذُ.

ـ موافق. تستطيعين أن تمرّي في الفناء، لكن ليلاً فقط، حين لا يراكِ البشر. إذ علينا نحن القطط أن نحافظ على هيبتنا ـ أشار ثورباس وقد ترك رأسه.

خرج من غرفة التفتيش سيراً إلى الوراء دون أن يضيع عن ناظره رئيسَ الجرذان، ولا العيون الحمراء التي كانت تنظر إليه كراهيةً بالعشرات.

5

فرخٌ أم فرخة؟

مضت ثلاثةُ أيّام حتى استطاعوا أن يروا بارلوبِنتو، الذي كان قطَّ بحرٍ، قطَّ بحرٍ حقيقيّ.

كان بارلوبِنتو تميمة هانس الثاني، الكراكة الهائلة المكلّفة دائماً بالحفاظ على قاع إلبا نظيفاً وخالياً من المخاطر. وكان بحّارةُ هانِسْ الثاني يقدّرون عالياً بارلوبِنْتو، القطّ عسلي اللون، أزرق العينين الذي كانوا يتخذونه كرفيقٍ آخر أثناء أعمال تنظيف قاع النهر.

كانوا يغطّونه أثناء العواصف بمشمّع أصفر مصنوع على قياسه، ويشبه المطريات التي يستخدمونها هم، وبارلوبِنتو يتنزّه على سطح المركب بتقطيبة البحّارة الذين يتحدّون الطقسَ السيّئ.

وكان هانِس الثاني قد نظّفَ أيضاً مرافئ روتردام، أمبِرْ وكوبنهاغن، وكان بارلوبِنتو يموء عادةً بقصصٍ مسلية عن هذه الأسفار. بلى كان قطَّ بحرٍ حقيقيّاً.

ـ واويّ! ـ ماءَ بارلوبِنتو عند دخولهِ إلى البازار.

رفرف الشمبانزي أهدابه مذهولاً حين رأى القطَّ الذي يتقدّمُ ويتمايل مع كلِّ خطوة ذات اليمين وذات الشمال، متجاهلاً أهميّة كرامته كبائع تذاكر المحل.

ـ إذا كنتَ لا تعرف أن تقول صباح الخير، فادفع ثمن تذكرة الدخول على الأقل، يا كيس البراغيث ـ دمدمَ ماتيّاس.

ـ أبله العمى! بحقّ أنياب سمكة السيف! هل ناديتني كيس البراغيث؟ ليكن في علمك أنّ هذا الجلد لسعته كلّ حشراتِ الموانئ جميعِها. سأموء لك ذات يوم عن بعض القرّاد الذي علق بظهري، وكان من الثقل بحيث لم أقوَ عليه. وحق ذقن سمكة القرش! وسأموء لك عن براغيث جزيرة كاكاتوَا التي تحتاجُ لامتصاص دم سبعة رجال كي تشعر بالشبع كمقبّلات. بحقّ زعانف سمكة القرش! ارفع المراسي ولا تقطع عنّي النسمة! ـ أمر بارلوبِنتو وتابع طريقَه دون أن ينتظر جواب الشمبانزي.

حين وصلَ إلى غرفة الكتبِ سلَّم من الباب على القطط المجتمعة هناك.

ـ مياو! ـ قدّم بارلوبِنتو نفسه. كان يحبّ أن يموء بـ صباح الخير بلهجة هامبورغ الخشنة والعذبة في آنٍ معاً.

ـ وصلتَ أخيراً، أيّها القبطان! لا تدري كم نحنُ بحاجةٍ إليك! ـ حيّاهُ كولونِلّو.

حكوا له على وجه السرعةِ قصّة النورس والوعود التي قطعها لها ثورباس، الوعود، كرّروا، التي التزموا بها جميعاً.

أصغى بارلوبِنتو بحركاتٍ مغمومةٍ من رأسه.

ـ وحقّ حبرِ الحبّار! تحدثُ أشياء رهيبة في البحر. أتساءل أحياناً ما إذا كان قد جُنَّ بعضُ البشر، لأنّهم يحاولون أن يجعلوا من المحيط مزبلة هائلة. جئتُ الآن من تنظيف مصبّ إلبا. لا يمكن تصوّر كميّة القذارات التي تجرفها الأمواج. وحقّ درع السلحفاة! أخرجنا براميل من قاتل الحشرات، وعجلات وأطناناً من قناني البلاستيك اللعينة التي يخلّفُها البشرُ على الشطّ ـ أشار بارلوبِنتو غضِبَاً.

ـ شيءٌ فظيع! فظيع! إذا استمرّت الأمور على هذا الشكل فإنّ كلمة تلوّث ستشغل مجلّد حرف اللام السادس عشر من الموسوعة كلّه ـ أشار عارفُ كلّ شيء مستنفراً.

ـ وماذا أستطيع أن أفعل أنا من أجل هذا الطائر المسكين؟ ـ سأل بارلوبِنتو.

ـ لا أحد غيرك، أنت الذي تعرفُ أسرار البحار، يستطيعُ أن يقول لنا ما إذا كان الفرخ ذكراً أم أنثى ـ أجاب كولونِلّو.

قادوه إلى الفرخ، الذي كان ينام راضياً، بعد أن انتبه إلى حبّارٍ جاء به سِكرِتاريو، الذي كُلّف بناء على نصائح كولونِلّو بتغذيته.

مدّ بارلوبِنتو قائمة أماميّة، فحص رأسه ورفع في الحال الريش الذي كان ينمو على ذيله. بحث الفرخُ عن ثورباس بعينين خائفتين.

ـ وحقّ أرجل السرطان! ـ هتفَ قطّ البحر مرحاً ـ إنها فرخة جميلة ستضع ذات يومٍ بيضاً بعددِ ما في ذيلي من شعر!

لعقَ ثورباس رأسَ النورس الصغيرة، وأسف لأنّه لم يسأل أمّها عن اسمها. إذا كان قدر ابنتها أن تتابع طيرانها الذي

قطعه عليها البشرُ، فإنّ من الجميل أن يكون لها اسم أمِّها ذاته.

ـ بما أنَّ الفرخة قد حالفها الحظّ ووقعت تحت حمايتنا ـ ماءَ كولونِلّو ـ أقترحُ أن نُسمّيها محظوظة.

ـ أيْ وحقِّ خياشيم اللقّس! إنّه لإسمٌ جميل! ـ هتف بارلوبِنتو ـ أتذكّر نورساً جميلةً رأيتها في بحر البلطيق. تدعى هكذا، محظوظة وكانت بيضاء بالكامل.

ـ أنا واثق أنّها ستقوم في المستقبل بعمل بارز، رائع، وسيدخل اسمها في المجلّد السابع عشر حرف الميم من الموسوعة ـ أكّد سِكرِتاريو.

وافق الجميع على الإسم الذي اقترحه كولونِلّو. وشكّلت القطط الخمسةُ دائرةً حول النورس الصغيرة. وقفت على قوائمها الخلفية ومدّت قوائمها الأمامية ووضعتها تحت سقف من المخالب، وراحت تموء بصلاة تعميد قطط الميناء.

ـ نحيّيكِ، يا محظوظة، يا صديقة القطط!

ـ مياوي! مياوي! مياوي! ـ هتف بارلوبِنتو سعيداً.

6

محظوظة، حقّاً محظوظة

كبرت محظوظة بسرعة، محاطة بحنان القطط. وبعد شهرٍ من عيشها في بازار هاري صارت نورساً شابةً. شابّة وممشوقة ذات ريش فضّي حريريّ.

وحين كان يزور بعض السائحين البازار تتسمّر محظوظة بين الطيور المحنّطة، متبعة تعليمات كولونِلّو، متظاهرة بأنها واحدة منها. لكن ما إن يُغلق البازار أبوابه في المساء، وينسحب ذئب البحر حتى تمضي متجوّلةً باختيال طائرٍ بحري في جميع الغرف، مندهشة أمام آلاف الأشياء، بينما عارف كلّ شيء يراجع ويراجع الكتب باحثاً عن الطريقة التي سيعلّمها بها ثورباس الطيران.

ـ يقوم الطيرانُ على دفعِ الهواء إلى الخلف وإلى الأسفل! هاها! ها صار عندنا شيء مهم! ـ كان عارف كلّ شيءٍ يدمدم وأنفه محشور في كتبه.

ـ ولماذا عليّ أن أطير؟ ـ نعبت محظوظة وجناحاها ملتصقان بجسمها.

ـ لكنكِ نورس والنوارس تطير ـ ردّ عارف كلّ شيء ـ يبدو لي رهيباً! رهيب! ألاّ تعرفين ذلك؟

ـ لكنّني أريدُ أن أكون قطّاً ـ ناقشت محظوظة ـ لا أريدُ أن أكون نورساً. أريد أن أكون قطّاً والقطط لا تطير.

اقتربت ذات مساء من باب البازار، وحدث لها لقاء مزعج مع الشمبانزي.

ـ إيّاك أن تتبرز هناك، أيها الطائر القبيح! ـ زعقَ ماتياس.

ـ ولماذا تقول لي هذا، أيّها السيِّد القردُ؟ ـ سألت بخوف.

ـ لأنّه الشيء الوحيد الذي تفعله الطيور. زرق. وأنت طائر ـ ردّدَ الشمبانزي واثقاً جدّاً من نفسه.

ـ أنت مخطئ. أنا قطٌّ ونظيف جدّاً ـ أجابت محظوظةُ باحثة عن استلطاف القرد ـ فأنا أشغل الصندوق ذاته الذي يشغله عارفُ كلّ شيء.

ـ هاها! ما يحدثُ هو أنّ هذه الزمرة من أكياس البراغيث أقنعتك بأنّك واحد منها. لك قائمتان وللقطط أربع. لك ريش وللقططْ شعر. والذيل؟ هه؟ أين ذيلك؟ أنت مجنون مثل هذا القطّ، الذي يقضي حياته في القراءة والمواء. رهيب! رهيب! يا لك من طائر قبيح وأحمق! وهل تريد أن تعرف لماذا يدلّلك أصدقاؤك؟ لأنها تأمل أن تسمن لتقيم عليك حفلة كبيرة. ستأكلك بريشك وكلّ شيء! ـ زعق الشمبانزي.

استغربت القططُ في ذلك المساء أنّ النورس لم تأتي لتأكل صحنها المفضّل: الحبار الذي اختلسه سِكرتاريو من مطبخ المطعم.

بَحَثَتْ عنها مشغولة البال وكان ثورباس من عثر عليها، منكمشة وحزينةً بين الطيور المحنّطة.

- ألستِ جائعة، يا محظوظة؟ يوجد حبّار. - أشار ثورباس.

لم تفتح النورس منقارها.

- هل يؤلمكِ شيء؟ - أصرّ ثورباس مشغولاً- هل أنتِ مريضة؟

- هل تريدني أن آكلَ لأسمن؟ - سألت دون أن تنظر إليه.

- كي تكبري سليمة وقويّة.

- وهل ستدعو الجرذان لتأكلني حين أصبح سمينة؟ - نعبت والدموع تملأ عينيها.

- من أين تأتين بهذه الحماقات؟ - ماءَ ثورباس بعنف.

بوّزت محظوظة وراحت تحكي له كلَّ ما زعق به ماتياس. لعق ثورباس دموعها ورأى نفسه يموء فجأة كما لم يموءْ من قبل:

- أنتِ نورس. الشمبانزي على حقّ في هذا، لكن فقط في هذا. جميعنا نحبّكِ، يا محظوظة. ونحبُّكِ لأنّكِ نورس. ولم نعارضك حين نعبتِ بأنّكِ قطّ لأنّه يسعدنا أنك تريدين أن تكوني مثلنا، لكنّكِ مختلفة ويسعدنا أن تكوني مختلفة. لم نستطع مساعدة أمّك واستطعنا مساعدتك. رعيناكِ منذ خرجت من البيضة. لقد منحناك كلَّ حناننا، دون أن نفكّر قط بجعلك قطّة مثلنا. نحن نحبّك نورساً ونشعر بأنك تُحبيننا أيضاً وأنّنا أصدقاؤك، أسرتك. ومن الحسن أن تعرفي أنّنا تعلّمنا معك

شيئاً يملؤنا بالاعتزاز: تعلّمنا تقدير واحترام ومحبّة الكائن المختلف. من السهل جداً قبول ومحبّة من هم مثلنا، لكن عمل ذلك مع آخر مختلف شيء صعب للغاية وأنتِ ساعدتنا على تحقيق ذلك. أنتِ نورس وقدركِ يجب أن يكون قدر النورس. يجب أن تطيري. وأؤكّدُ لك أنكِ حين تحققين ذلك، يا محظوظة ستكونين في غاية السعادة، وحينئذٍ ستكون مشاعرك نحونا ومشاعرنا نحوك أقوى وأجمل، لأنّ ذلك سيشكّل الحنان بين كائنات مختلفة تماماً.

ـ أخاف الطيران ـ نعبت محظوظة ناهِضَةً.

ـ سأكون معكِ حين يحدث ذلك ـ ماءَ ثورباس وهو يلعق لها رأسها ـ هذا ما وعدتُ به أمّك.

راحت النورس الشابة والقطّ الكبير، الأسود والسمين، يسيران. هو يلعق لها رأسها، وهي تغطي ظهره بأحد جناحيها المبسوطين.

7

تعلُّم الطيران

ـ سنتفحّص قبل أن نبدأ ولآخر مرّة الجوانبَ الفنية ـ ماءَ عارفُ كلّ شيء.

راح كلّ من كولونِلو وسِكرتاريو وثورباس وبارلوبِنتو يراقبُ من فوق أعلى رفّ بانتباه شديد ما يجري في الأسفل.هناك كانت محظوظة واقفة على ساقيها في أقصى ممرٍّ سمّتهُ مدرّج الإقلاع، وعارف كلّ شيء في الطرف الآخر منحنياً على الجزء السادس عشر، حرف اللام المخصصة صفحاته لليوناردو دافنشي، تظهر فيها آلة غريبة عمّدها المعلم الإيطالي العظيم باسم «آلة الطيران».

ـ رجاءً، لنتأكّد أوّلاً من ثبات نقطتي الارتكاز ألف وباء ـ أشار عارف كلّ شيء.

ـ أجرب نقطتي الارتكاز ألف وباء ـ كرّرت محظوظة قافزة أولاً على الساق اليسرى ثم على اليمنى.

ـ تمام! لنجرّب الآن بسط النقطتين جيم ودال ـ ماءَ عارفُ

كلّ شيء، الذي كان يشعر بنفسه مهمّاً مثل مهندس في الناسا.

- أجرّب انتشار النقطتين جيم ودال - أطاعت محظوظة ناشرة جناحيها.

- تمام! - أشار عارفُ كلّ شيء - لنكرّر كلّ شيء مرّة أخرى.

- بحق شارب سمك الترس! دعها تطير وخلّصنا! - هتف بارلوبنتو.

- أذكّرك بأنّني المسؤول الفني عن الطيران! - أجاب عارف كلّ شيء - يجب أن يكون كل شيء مضموناً وإلاّ فالنتائج يمكن أن تكون رهيبة على محظوظة. رهيبة!

- إنّه على حقّ. هو يعرف ما يفعل - أبدى سِكرتاريو.

- هذا بالضبط ما كنت سأموء به - دمدم كولونِلّو- هل ستتوقف ذات مرّة عن سحب مواءاتي من فمي؟

كانت محظوظة هناك على وشك أن تحاول طيرانها الأوّل، لأنّه حدث في الأسبوع الأخير أمران جعلا القطط تدرك بأنّ النورس تريد الطيران، على الرغم من كبتها لهذه الرغبة جيّداً.

حدث الأوّل ذات مساء رافقت فيه محظوظة القططَ للتشمس على سطح قرميد بازار هاري. وبعد أن تمتّعت ساعةً بالشمس رأت ثلاثة نوارس تحلّق عالياً، عالياً جدّاً.

بدت لها جميلة، جليلة مطبوعة على زرقة السماء. تبدو للحظات أنّها شُلّت، طفت فقط في الهواء بأجنحتها المنشورة، لكن تكفيها حركة واحدة كي تنتقل برشاقة وأناقة تبعث على الغيرة والرغبة بالتواجد معها في الأعلى. فجأة تخلّت القطط عن

النظر إلى السماء وحطّت نظرها على محظوظة. كانت النورس الشابة تراقب طيران أبناء نوعها وتنشر جناحيها دون أن تنتبه.

ـ انظري، تريد أن تطير! ـ علّق كولونِلّو.

ـ بلى، آن الأوان كي تطير ـ وافق ثورباس ـ صارت نورساً كبيرة وقويّة.

ـ طيري، يا محظوظة! حاولي! ـ شجّعها سِكرِتاريو.

وما إن سمعت محظوظة مواءات أصدقائها حتى طوت جناحيها واقتربت منهم. استلقت بجانب ثورباس، وراحت تصوّت من منقارها متظاهرة بالشخير.

الأمر الثاني حدث في اليوم التالي، حين كانت القطط تستمع إلى قصّة من بارلوبِنتو.

ـ ... وكما كنتُ أموء لكم، كانت الأمواج من العلو بحيثُ أنّنا لم نكن نستطيع رؤية الشاطئ. وحقّ دسم الشوكولا! ولكي يتوج الأمر سوءاً كانت البوصلة قد تحطّمت. خمسة أيّام بلياليها بقينا في العاصفة لا ندري ما إذا كنّا نبحر نحو الشاطئ أم نتوغّل عمقاً في البحر. عندئذٍ وحين شعرنا بضياعنا رأى مدير الدفّة سرباً من النوارس. يا للفرحة، يا رفاقي! وجّهنا مقدمّة السفينة متبعين طيران النوارس، وتمكّنا من الوصول إلى البر. وحقّ أنياب سمكة السيف! لقد أنقذت تلك النوارسُ حياتنا. لو لم نرها لما كنتُ أموء لكم الآن بهذه القصّة.

محظوظة التي كانت تتابع دائماً قصص قطّ البحر بانتباه شديد أصغت إليه بعينين جاحظتين.

ـ وهل تطيرُ النوارس في أيام العواصف؟ ـ سألت.

ـ وحقّ تفريغات الأنقليس! النوارس من أقوى طيور الدّ
ـ أكّد بارلوبِنتو ـ لا يوجدُ طائر يجيد الطيران مثل النورس

كانت مواءات قطّ البحر تنفذ عميقاً في قلب محظو
فتضرب الأرض بقائمتيها وتحرّك منقارها بعصبية.

ـ هل تريدين الطيران، يا آنسة؟ ـ سأل ثورباس.

نظرت محظوظة إلى القطط واحداً واحداً قبل أن تُجيب

ـ بلى. من فضلكم علّموني الطيران!

ماءت القطط بفرحتها وأسلمت قوائمها للعمل. فقد انتظ
تلك اللحظة طويلاً. لقد انتظرت بالصبر الذي يميّز القطط
تخبرها النورس برغبتها بالطيران، لأنّ حكمة قديمة جعا
تدرك أن الطيران قرارٌ شخصيّ جدّاً. أسعدها كان عارف
شيء، الذي عثر على أسس الطيران في المجلد السادس ع
حرف اللام من الموسوعة ولذلك سيأخذ على عاتقه إد
العمليات.

ـ جاهزة للإقلاع! ـ أشار عارفُ كلّ شيء.

ـ جاهزة للإقلاع! ـ أعلنت محظوظة.

ـ ابدئي الجري على المدرّج دافعة الأرضَ إلى الـ
بنقطتي ارتكازكِ ألف وباء ـ أمر عارفُ كلّ شيء.

بدأت محظوظة تتقدّم لكن ببطءٍ، وكأنّها تنزلق فوق عج
سيّئة التشحيم.

ـ بسرعة أكبر ـ طالبها عارف كلّ شيء.

تقدّمت النورس الشابة بسرعة أكثر قليلاً.

- والآن، انشري النقطتين جيم ودال - وجّهها عارفُ كلّ شيء.

نشرت محظوظة جناحيها وهي تتقدّمُ.

- ارفعي الآن النقطة هاء! - أمرها عارفُ كلّ شيء.

رفعت محظوظة ريش ذيلها.

- والآن حركّي النقطتين جيم ودال من الأعلى إلى الأسفل، وادفعي الهواء نحو الأسفل، واطوي في الوقت ذاته النقطتين ألف وباء! - وجّهها عارف كلّ شيء.

خفقت محظوظةُ جناحيها، وطوت ساقيها وارتفعت عدّة أشبار، لكن سرعان ما سقطت مثل حملٍ.وبقفزة واحدة نزلت القطط من فوق الرفّ وجرت نحوها. وجدتها والدموع تملأ عينيها.

- إنّني عديمة الفائدة! إنّني عديمة الفائدة! - كانت تردّدُ حزينةً.

- لا أحد يطير من أوّل محاولة، لكنّكِ ستدركين ذلك. أعدكِ بذلك. - ماءَ ثورباس وهو يلعق لها رأسها.

كان عارفُ كلّ شيء يحاول أن يجد الخطأ، مُراجِعاً آلة طيران ليوناردو مرّةً وأخرى.

8

القطط تقرر أن تحطّم المحرّم

سبع عشرة مرّة حاولت محظوظة الطيران، وسبع عشرة مرّة انتهت إلى الأرض بعد أن استطاعت أن ترتفع عدّة سنتيمترات.

كان عارف كلّ شيء الذي بدا أهزل مما هو في العادة قد نتف شاربه، بعد أن فشل اثنتي عشرة مرة وهو يحاول بمواءات مرتعشة أن يعتذر:

- لا أفهم ذلك. راجعتُ نظريّة الطيران بتركيز، قارنت تعليمات ليوناردو مع كل ما خرج معي من القسم المخصص لآلية الطيران، المجلد الأول الحرف ألف من الموسوعة ومع ذلك لم نتمكّن من ذلك. رهيب! رهيب!

كانت القطط تقبل توضيحاته وتصبّ كل تركيزها على محظوظة، التي كانت تزداد بعد كلّ محاولة فاشلة حزناً وكآبة.

قرّر كولونِلّو بعد الفشل الأخير أن يوقف تجاربه، فتجربته

كانت تقول له إنّ النورس بدأت تفقد الثقة بنفسها وهذا خطير جدّاً إذا كانت تريد فعلاً أن تطير.

ـ ربما لا تستطيع ذلك ـ أبدى سِكرِتاريو ـ ربّما عاشت أكثر من اللازم معنا وفقدت قدرتها على الطيران.

ـ باتباع التعليمات الفنيّة واحترام قوانين آلية الطيران من الممكن الطيران. لا ننسى أنَّ كلّ شيء موجود في الموسوعة ـ أشار عارفُ كلّ شيء.

ـ وحقّ ذيل الشفنين! ـ هتف بارلوبِنتو ـ إنّها نورس والنوارس تطير!

ـ يجب أن تطير. وعدتُ أمّها ووعدتها بذلك. يجب أن تطير.. ـ ردد ثورباس.

ـ وتنفيذ هذا الوعد يشملنا جميعاً. ـ ذكّرَ كولونِلّو.

ـ لنعترف بأنّنا غير قادرين على تعليمها الطيران، وعلينا أن نبحث عن مساعدة خارج عالم القطط ـ اقترح ثورباس.

ـ وضّح، يا صديقي الغالي. إلى أين تريد الوصول؟ ـ سأل كولونِلّو بجدّية.

ـ أطلب تفويضاً بتحطيم المحرّم لأوّل وآخر مرّة في حياتي ـ طلب ثورباس ناظراً إلى عيون رفاقه.

ـ تحطيم المُحرَّم! ـ ماءت القطط مخرجة مخالبها ونافشة شعر ظهرها.

ـ المواء بلغة البشر محرّم، هكذا يقول قانون القطط وهذا ليس لأنّها غير مهتمّة بالتواصل مع البشر. الخطر يكمن في الجواب الذي سيقدّمه البشر. ماذا سيفعلون بقطٍّ متكلّم؟ بكلّ

تأكيد سيحبسونه في قفص ليخضعوه لكلّ أنواع التجارب التافهة، لأنّ البشر غير قادرين على قبول فهم كائن مختلف عنهم ويحاول أن يجعلهم يفهموه. تعرف القطط مثلاً مصير الدلافين المحزن التي تصرّفت بطريقة ذكية مع البشر، فَحَكَمَ عليها هؤلاء بتحويلها إلى بهلوانات في مشاهد مائية. وتعرف أيضاً الذل الذي يُخْضِعُ به البشرُ أيّ حيوانٍ يُظهر ذكاءً وتبادلَ فهمٍ معهم. الأسود مثلاً، السنوريات الكبيرة المكرهة على العيش بين القضبان حيث يُدخل قميءٌ رأسه في حلقومها؛ أو الببغاوات التي تُحبس في أقفاص وتردّدُ بلاهات. بمعنى أن المواء بلغة البشر خطر كبيرٌ جدّاً على القطط.

- ابقَ بجانب محظوظة. وسننسحب نحن لنناقش طلبك - أمر كولونِلّو.

دام اجتماعُ القطط المغلق ساعاتٍ طويلة. ساعات طويلة بقي ثورباس خلالها مستلقياً بجانب النورس، التي لم تخفي الحزن الذي يسببه لها عدم معرفتها الطيران.

كان الليلُ قد حلّ حين انتهت من اجتماعها. اقترب ثورباس منها ليعرف القرار.

- نرخّص لك نحن قطط المرفأ بتحطيم المحرّم لمرّة واحدة فقط. ستموء مع إنسانٍ واحدٍ فقط، لكنّنا سنقرّرُ قبل ذلك من سيكون منهم - أعلن كولونِلو بوقار.

9

اختيار الإنسان

لم يكن سهلاً اختيار الكائن البشري الذي سيموء معه ثورباس. وضعت القطط لائحة بكلّ من عرفت منهم وراحت تستبعدهم واحداً بعدَ الآخر.

ـ لا شكّ أنّ رِنِيهْ، معلِّم المطبخ كائنٌ بشريٌّ عادِل وطيِّب. فهو دائماً يحتفظ لنا بحصّة من اختصاصاته، التي نلتهمها أنا وسِكرِتاريو بمتعة. لكنّ رِنيه الطيِّب لا يفهم إلاّ بالتوابل والقدور ولن يفيدنا في هذه الحالة كثيراً ـ أكّد كولونِلّو.

ـ هاري أيضاً رجل طيّب. متفهِّم ولطيف مع الجميع، حتى مع ماتياس، الذي يغفر له إيذاءاته الرهيبة، الرهيبة! مثل الاستحمام بالباتشولي، هذا العطر ذي الرائحة الرهيبة، الرهيبة! ثمّ إنّ هاري يعرفُ الكثير عن البحر والإبحار. لكنّني لا أعتقد أنّ عنده أدنى فكرة عن الطيران ـ علّق عارف كلّ شيء.

ـ كارلو، رئيس نُدل المطعم، يؤكّدُ أنّني له وأتركه يصدّق

ذلك لأنّه طيّب. من المؤسف أنّه يفهم بكرة القدم، والسلّة واليد وسباق الأحصنة، الملاكمة ورياضات أخرى كثيرة، لكنّني لم أسمعه قط يتحدّثُ عن الطيران ـ أخبرها سِكرتاريو.

ـ وحقّ جعدات الشقّار! قبطاني إنسان في غاية العذوبة، حتى أنّه في آخر شِجار له في بار أمبِرِسْ واجهَ اثني عشر شخصاً أهانوه فجندل نصفهم. ثمّ إنّه يشعر بالدوار من مجرّد الصعود على كرسيّ. وحقّ مجسّات الأخطبوط! لا أظنّ أنه يفيدنا ـ قرّر بارلوبِنتو.

ـ طفلُ بيتي سيفهمني. لكنّه في إجازة، ثمّ ماذا يستطيع أن يعرف طفلٌ مثله عن الطيران؟ ـ ماءَ ثورباس.

ـ بؤس قذر ! انتهت اللائحة ـ دمدم كولونِلّو.

ـ لا. هناك كائن بشري غير موجود في اللائحة ـ أشار ثورباس ـ يعيشُ مع بوبولينا.

كانت بوبولينا قطّة حلوة بيضاء وسوداء تقضي ساعاتٍ طويلةً بين أصص زهر إحدى الشرفات. تمرّ بها كلُّ قطط المرفأ ببطءٍ مبرزة لدانة أجسادها وبريق جلودها المنظّفة بإطناب وطول شواربها، ورشاقة أذيالها بهدف إدهاشها، لكنّ بوبولينا كانت تظهر لا مبالية ولا تقبل سوى حنان إنسان يجلس في الشرفة أمام آلة كاتبة.

كان كائناً بشرياً يضحكُ أحياناً بعد أن يقرأ ما انتهى من كتابته، وتلفُّ شرفته موسيقى ناعمة ورقيقة تدبُّ النعاسَ في بوبولينا، وتبعث التنهدات عند القطط التي تمرّ من هناك.

ـ إنسان بوبولينا؟ ولماذا هو؟ ـ تساءل كولونِلّو.

ـ لا أدري. فهذا الكائن البشري يبعثُ عندي الثقة ـ اعترفَ ثورباس ـ سمعته يقرأ ما يكتب. كلمات جميلة تسعدُ وتُحزِنُ، لكنّها دائماً تبعث المتعة وتثير رغبة بالاستمرار في الإصغاء.

ـ شاعر! ما يكتبه هذا الكائن البشري يُسمّى شعراً. المجلّد الثامن حرف الشين من الموسوعة. ـ أكّد عارف كلّ شيء.

ـ ما الذي حملك على الاعتقاد بأنّ هذا الكائن البشري يعرف الطيران؟ ـ أراد أن يعرف سِكرتاريو.

ـ ربّما لا يعرف الطيران بأجنحة طائر، لكنني كلّما أصغيتُ إليه فكّرت أنّه يطير بالكلمات ـ أجاب ثورباس.

ـ ليموّ من يوافق على أن يموء ثورباس مع إنسان بوبولينا برفع قائمته الأمامية اليمنى ـ أمر كولونِلّو.

وهكذا كان أن أذِنت له بالمواء مع الشاعر.

10

قط وقطّة وشاعر

شرع ثورباس بالسير في طريقه عبر السطوح حتى وصل إلى شرفة الكائن البشري المختار. وحين رأى بوبولينا مستلقية بين الأصص تنهّد قبل أن يموء.

ـ بوبولينا، لا تخافي. أنا هنا في الأعلى.

ـ وماذا تريد؟ من أنت؟ ـ سألت القطّةُ مذعورةً.

ـ لا تذهبي من فضلك. اسمي ثورباس وأعيش قريباً من هنا. أحتاج لمساعدتك. هل أستطيع النزول؟

أومأت إليه القطّةُ برأسها. قفز ثورباس إلى الشرفة وجلس على قائمتيه الخلفيتين. اقتربت بوبولينا لتتشمّمه.

ـ رائحتك رائحة كتب ورطوبة، رائحة ثيابٍ قديمة، طائر، غبار، لكنّ شعرَكَ نظيف ـ أكّدت القطّةُ.

ـ إنّها رائحة بازار هاري. لا تستغربي إذا كانت رائحتي رائحة شمبانزي أيضاً ـ حذّرها ثورباس.

تصلُ الشرفةَ موسيقى ناعمة.

ـ ما أجملها من موسيقى ـ علّقَ ثورباس.

ـ إنه فيفالدي. الفصول الأربعة. ماذا تريدُ منّي؟ ـ أرادت بوبولينا أن تعرف.

ـ أن تدعيني للدخول وتعرّفيني على كائنك البشري ـ أجاب ثورباس.

ـ مُحال. إنّه يعملُ ولا أحد يستطيع أن يُعكِّر عليه صفوه ـ أجابت القطّةُ.

ـ رجاءً، الأمر مستعجل. أطلب منك ذلك باسم جميع قطط المرفأ ـ توسّلها ثورباس.

ـ ولماذا تريد أن تقابله؟ ـ سألت بوبولينا بعدم ثقة.

ـ يجبُ أن أموء معه ـ أجاب ثورباس بتصميم.

ـ هذا محرّم ـ ماءت بوبولينا وقد انتفش شعرها ـ أغرب عن وجهي!

ـ لا. وإذا لم تدعيني للدخول، فليأتِ هو! هل تحبين الروك، يا قُطيطة؟

كان الكائن البشري يكتب على الآلة الكاتبة. يشعر بالسعادة لأنّه على وشك أن ينهي قصيدة وتخرج معه الأبيات بانسيابية مذهلة. فجأة وصلت إلى مسمعه من الشرفة مواءات قطّ ليس بوبولينا. كانت مواءات غير موزونة لكنّها تحمل بعضَ الإيقاع. خرج إلى الشرفة بين المنزعج والفضولي وكان عليه أن يفرك عينيه كي يصدّق ما يراه.

كانت بوبولينا تسدُّ أذنيها بقائمتيها الأماميتين على رأسها وأمامها قطّ كبير، أسود وسمين، قابعاً على ركيزة صلبه ويستند بظهره إلى أصيص، يمسك ذيله بقائمة أمامية كأنه كمان، ويتظاهر بالأخرى كأنه يعزف على أوتارها، بينما يطلق مواءات مثيرة للأعصاب.

لم يستطع من هول المفاجأة أن يكتم ضحكته، وحين انحنى ضاغطاً إلى بطنه استغلَّ ثورباس المناسبة كي يتسلَّل إلى داخل البيت.

التفت الكائن البشري وهو ما يزال ميتاً من الضحك فوجد القطّ الكبير، الأسود والسمين، جالساً على كرسيّ.

ـ ياله من كونشرتو! أنت مغوٍ أصيل، لكنّني أخشى ألاّ تعجب موسيقاك بوبولينا. ياله من كونشرتو عجيب! ـ قال الكائن البشريُّ.

ـ أعلم أنّني أغني بشكلٍ سيّئ. لا أحد كامل ـ أجاب ثورباس بلغة البشر.

فتح الكائن البشري فمه، ضرب على وجهه وأسند ظهره إلى الجدار.

ـ ها. ها. وتتكلّم! ـ صاح الكائن البشري.

ـ أنت أيضاً تفعلُ ذلك ولا أستغرب. أرجوك، اهدأ ـ نصحه ثورباس.

ـ قـ... طٌّ يتكلّم ـ قال الكائن البشري وسقط على الأريكة.

ـ أنا لا أتكلّم بل أموء لكن بلغتك. أعرف المواء بلغاتٍ كثيرة ـ أشار ثورباس.

رفع الكائنُ البشري يديه إلى رأسه وغطّى عينيه وهو يردّدُ: «إنّه التعب، إنّه التعب». وحين أبعد يديه كان القطُّ الكبير، الأسود والسمين، ما يزال على الكرسيّ.

- إنّها هلوسات. أليست حقّاً هلوسة؟ - سأل الكائن البشري.

- لا، أنا حقّاً قطٌّ يموء معكَ - أكّد له ثورباس - لقد اخترناك نحن قطط المرفأ من بين كلّ البشر لنبوح لك بمشكلة كبيرة كي تساعدنا. لست مجنوناً. أنا حقيقيّ.

- وتقول إنّك تموء بلغات كثيرة؟ - سأل الكائن البشري غير مصدِّق.

- أظنّ أنك تريدُ برهاناً. هيا - اقترح ثورباس.

- صباح الخير Buon giorno - قال الكائن البشري.

- إنّه مساء. من الأفضل أن نقول مساء الخير buona sera - صحّح ثورباس.

- صباح الخير Kalimera - أصرّ الكائن البشري.

- مساء الخير kalispera ، قلتُ لك إنّه مساء - عاد ثورباس وصحّح.

- صباح الخير Doberdan! - صرخ الكائن البشري.

- مساء الخير Dobreutra! هل صدّقتني الآن؟ - سأل ثورباس.

- بلى. ثم ماذا يهم أن يكون كلّ ذلك حلماً؟ يعجبني وأريد أن أستمرّ أحلم به - أجاب الكائن البشري.

ـ إذن أستطيع أن أدخل في الموضوع ـ اقترح ثورباس.

وافق الكائن البشري، لكنّه طلب منه أن يحترم آداب الحديث البشري. قدّم للقط صحن حليب واستراح هو في الأريكة وبين يديه كأس من الكونياك؟

ـ مُوْ، يا قطّ ـ قال الكائن البشري. قصّ عليه ثورباس قصّة النورس، البيضة، محظوظة والجهود الفاشلة التي بذلتها القطط لتعليمها الطيران.

ـ هل تستطيع مساعدتنا؟ ـ استشاره ثورباس عند الانتهاء من روايته.

ـ أظنّ ذلك. وهذه الليلة ذاتها ـ أجاب الكائن البشري.

ـ هذه الليلة ذاتها؟ هل أنت متأكّد؟ ـ استقصى ثورباس.

ـ انظر من النافذة، أيّها القطّ. انظر إلى السماء. ماذا ترى؟ ـ دعاه الكائن البشري.

ـ غيوم، غيوم سوداء. عاصفة تقترب وستمطر على الفور ـ أبدى ثورباس.

ـ لهذا السبب ذاته ـ قال الكائن البشري.

ـ لاأفهم عليك. أنا آسف لكنّني لا أفهم عليك ـ اعترف ثورباس.

وعندئذٍ ذهب الكائن البشري إلى مكتبه وعاد بكتابٍ وبحث بين صفحاته.

ـ اسمع، أيّها القطّ: سأقرأ عليك بعضاً من شعر شاعرٍ يُدعى بِرناردو أتشاغا، أبياتاً من قصيدة عنوانها «النوارس».

لكنّ قلبها الصغير

ـ قلب البهلوانات ـ

لا يتنهّد لشيء كما يتنهّد للمطر الأبله

الذي يكاد يأتي بالريح دائماً،

بالشمسِ دائماً.

ـ فهمتُ. كنتُ واثقاً من أنّك تستطيع مساعدتنا ـ ماءَ ثورباس قافزاً من فوق الكرسيّ.

اتفقا على الاجتماع عند منتصف الليل أمام باب البازار وهرع القطُّ الكبير، الأسود والسمينُ، ليخبر رفاقه.

11

الطيران

مطر غزير كان يسقط فوق هامبورغ ومن الحدائق ينبعث عبق التراب الرطب. إسفلت الشوارع يلمع وتنعكس أنوار النيون مشوّهة على الأرض المبللة. رجل ملفوف بمعطفه يسير في شارع من شوارع المرفأ المقفرة، موجهاً خطواته نحو بازار هاري.

ـ ولا بشكلٍ من الأشكال ـ زعق الشمبانزي ـ حتى لو غرزت مخالبكِ الخمسين في مؤخرتي فلن أفتح لكِ الباب.

ـ لكن لا أحد ينوي إيذاءك. فقط نطلبُ منك معروفاً، هذا هو كلّ شيء ـ ماءَ ثورباس.

ـ مواعيد فتح البازار هي من التاسعة صباحاً وحتى السادسة مساءً. هذا هو النظام ويجب أن يُحترَم ـ زعق ماتياس.

ـ بحقِّ شوارب فيل البحر! ألا يمكنك أن تكون لطيفاً لمرّة واحدة في حياتك، أيّها القرد؟ـ ماءَ بارلوبِنتو.

ـ من فضلك، يا سيد قرد ـ نعبت محظوظة متوسلةً.

ـ محال! النظام يمنعني من مدّ يدي وسحب المزلاج، الذي لا تستطيعين أنت سحبه لأنّه ليس لك أيد، يا أكياس البراغيث، ـ زعق ماتياس بتباطؤٍ خبيث.

ـ أنت قردٌ رهيب! رهيب! ـ ماءَ عارفُ كلّ شيء.

ـ في الخارج إنسانٌ ينظر إلى ساعته ـ ماءَ سِكرتاريو، الذي كان يسترق النظرَ من نافذة.

ـ إنّه الشاعرُ! ليس لدينا من الوقت ما نضيعه! ـ ماءَ ثورباس راكضاً بكلّ سرعة نحو النافذة.

بدأت نواقيس كنيسة سان ميغِل تقرعُ قرعات منتصف الليل الاثنتي عشرة وصوت انكسار بلور أفزع الكائن البشري. القط الكبيرُ، الأسودُ والسمين، سقط في الشارع وسط مطر غزير، لكنه نهض دون أن يهتمّ بجراح رأسه وقفز نحو النافذة التي خرج منها من جديد.

اقترب الكائن البشري في اللحظة المناسبة التي كان يرفع فيها عدد من القطط نورساً إلى إفريز النافذة. وخلف القطط شمبانزي يلمس وجهه محاولاً أن يغطّي عينيه، أذنيه وفمه في آنٍ معاً.

ـ خذها، حذارِ أن تُجرح بالبلور ـ ماءَ ثورباس.

ـ تعالا، أنتما الاثنان إلى هنا ـ قال الكائن البشريُّ وقد أخذها بين ذراعيه.

ابتعد الكائن البشري عن نافذة البازار مسرعاً يحمل تحت معطفه قطّاً كبيراً، أسودَ وسميناً، ونورساً فضيّة الريش.

ـ أوغاد! لصوص! ستدفعون الثمن! ـ زعق الشمبانزي.

ـ أنت من جلب لنفسه هذا. هل تدري ماذا سيفكّر هاري غداً؟ أنك أنتَ من كسر البلور ـ ماءَ سِكرتاريو.

ـ ويحك! لقد أصبتَ هذه المرّة بسحب مواءاتي من فمي ـ ماءَ كولونِلّو.

ـ بحقّ أنياب السمراء! هيا إلى السطح! سنرى محظوظتنا تطير! ـ ماءَ بارلوبِنتو.

كان القطّ الكبيرُ، الأسودُ والسمين، والنورس يمضيان مرتاحين تحت المعطف، يشعران بحرارة الجسم البشري، الذي يمضي بخطوات سريعة وواثقة. يشعران بقلوبهم الثلاثة تخفق بإيقاعاتٍ مختلفة، لكن بالشدّة ذاتها.

ـ هل جُرِحت، أيّها القط؟ ـ سأل الكائن البشريّ حين رأى بقع دمٍ على طيتي معطفه.

ـ ليس للأمر أهمية. إلى أين نمضي؟ ـ سأل ثورباس.

ـ وهل تفهم على الكائن البشري؟ ـ نعبت محظوظة.

ـ نعم، إنه شخص جيد سيساعدك على الطيران ـ أكد ثورباس.

ـ هل تفهم على النورس؟ ـ سأل الكائن البشري.

ـ قل لي إلى أين نمضي ـ ألحّ ثورباس.

ـ لم نعد نمضي. لقد وصلنا ـ أجاب الكائن البشري.

أطلّ ثورباس برأسه. كانوا أمام بناء عالٍ. رفع نظره فعرف برج سان ميغل المُنار بعاكسات عدّة. كانت حزم النور

تنصبّ بكثافة على بناء رشيق مغطّى بصفائح النحاس، التي كان الطقس والمطر والرياح قد غطّتها بعتاقة خضراء.

ـ الأبواب مغلقة ـ ماءَ ثورباس.

ـ ليس جميعها ـ قال الكائن البشري ـ عادةً ما آتي إلى هنا لأدخّن وأفكر وحدي في الليالي العاصفة. أعرفُ مدخلاً لنا.

داروا ودخلوا من باب جانبيٍّ صغير فتحه الكائنُ البشري بمساعدة سكين. وأخرج من أحد جيوبه مصباحاً كهربائياً وراحوا يصعدون، مهتدين بشعاع نور نحيل، درجاً حلزونياً يبدو لا متناهياً.

ـ أنا خائفة ـ نعبت محظوظة.

ـ لكنّكِ تريدين أن تطيري، أليس كذلك؟ ـ ماءَ ثورباس.

كانت المدينة تُشاهدُ كاملةً من برج سان ميغِل. المطر يلفّ برج التلفزيون بينما تبدو الرافعات في الميناء حيوانات مرتاحة.

ـ انظر، هناك يظهر بازار هاري. أصدقاؤنا هناك ـ ماءَ ثورباس.

ـ أنا خائفة! يا ماما! ـ نعبت محظوظة.

قفز ثورباس إلى الشرفة التي تحمي البرج. كانت السيارات تتحرّك في الأسفل مثل حشراتٍ بعيون برّاقة. أخذ الكائن البشري النورس بين يديه.

ـ لا! أنا خائفة! ثورباس! ثورباس! ـ نعبت وهي تنقر يدي الكائن البشري.

ـ انتظر! اتركها في الشرفة ـ ماءَ ثورباس.

ـ لم أفكّر برميها ـ قال الكائن البشريّ.

ـ سوف تطيرين، يا محظوظة. تنفسيّ. اشعري بالمطر. إنّه ماء ستملكين الكثير من الدوافع لتكوني سعيدة في الحياة، واحد منها هو الماء، آخر يسمى الريح وآخر يسمّى الشمس التي تصل دائما كتعويض بعد المطر. اشعري بالمطر. افتحي جناحيك ـ ماءَ ثورباس.

نشرت النورسُ جناحيها. حمّمتها العاكسات بالنور والمطر ينقط ريشها باللآلئ. رآها الكائن البشري والقطُّ ترفع رأسها مغمضةً العينين.

ـ أحبّ المطرَ وأحبّ الماء، أحبهما! ـ نعبت.

ـ ستطيرين ـ ماءَ ثورباس.

ـ أحبك. أنت قطٌّ رائع ـ نعبت مقتربة من حافّة الشرفة.

ـ ستطيرين. وستكون السماء كلّها ملكك ـ ماءَ ثورباس.

ـ لن أنساكَ أبداً. كما لن أنسى القطط الأخرى ـ نعبت ونصف قائمتيها صار خارج الدرابزين، لأنّه وكما تقول أبيات شعر أتشاغا قلبها الصغير قلب البهلوانات.

ـ طيري! ـ ماءَ ثورباس ماطّاً قائمة يكاد لا يلمسها بها.

غابت محظوظة عن النظر، فخاف الكائن البشريّ والقطُّ من الأسوأ. لقد سقطت مثل حجر. فأطلا برأسيهما مقطوعي النفس من فوق الدرابزين، وعندئذٍ رأياها تخفق بجناحيها، تطير فوق موقف السيارات، ثمّ تابعا طيرانها حتى الأعلى حتى ديك الريح الذهبي الذي يتوّج جمالَ سان ميغِل الفريد.

طارت محظوظةً وحيدةً في ليل هامبورغ. ابتعدت خافقة جناحيها بقوّة حتى ارتفعت فوق رافعات المرفأ وساريات السفن وعادت على الفور محلّقة، دائرةً مرّة وأخرى حول برج الكنيسة.

ـ أنا أطيرُ! يا ثورباس! أستطيع الطيران! ـ نعبت منتعشةً من انفساح السماء الرماديّة.

داعب الكائن البشريّ ظهر القطّ.

ـ حسناً، أيّها القط، لقد نجحنا ـ قال متنهّداً.

ـ بلى على حافّة الفراغ أدركت الأهمّ ـ ماءَ ثورباس.

ـ صحيح؟ وما هو الذي أدركته؟ ـ سأل الكائنُ البشريّ.

ـ أنّه لا يطير إلا من يجروءُ على فعل ذلك ـ ماء ثورباس.

ـ أعتقد أنّ رفقتي الآن تربكك. سأنتظرك في الأسفل. ـ ودّع الكائن البشري.

بقي ثورباس هناك يتأمّلها، حتى لم يعرف ما إذا كانت قطرات المطر أم الدموع هي التي تبلّل عينيه الصفراوين، عيني القط الكبير، الأسود والسمين، القطّ الطيّب، القطّ النبيل، قط المرفأ.

لوفنبورغ، سيلبا نِغرا، 1996

تكاد تكون نادرة الروايات المرويّة على ألسنة الحيوانات أو الطيور، تلك التي تأسرك. رواية سِبولبيدا الساحرة لاتأسرك بل تولّد فيك أشواقاً سرّية للطيران، والانتماء إلى عالم الطبيعة بعيداً عن التلوّث الحضاري والانحطاط البشري.

وأنت تقرأ الحكاية تنبثق طفولتك القديمة، المنسيّة في غياهب الزمن. الطفولة السحرية النائمة التي يوقظها هذا الروائي الساحر.

للوهلة الأولى تبدو الرواية معادية للإنسان الذي لوّث الطبيعة ودمّرها بالحروب والكوارث. الإنسان الذي يسمّم البحار بالنفط والنفايات. لكن «كِنغه» النورس التي اختنقت بالنفط تقول وهي تُحتضر لاعنة البشر: «لكن ليس الجميع. يجب ألّا أكون ظالمة».

من المفارقات المقصودة عبر الحكاية، وهي عمودها الفقري، أن يقوم القط، عدوّ الطيور، مع زملائه باحتضان بيضة النورس حتى تفقس، وأن تتعاون الهررة معاً على تعليم النورس الصغير كيفية الطيران، تنفيذاً لوصية الأم التي ماتت بالتلوّث. الفعل والسياق الأخوي وهذا التآخي، نادر المثال، في عالم الحيوان يرفع العمل إلى الذروة. إلى ما هو أبعد من التضامن والرأفة والحبّ والوفاء.

حكاية بسيطة، سحرية، عميقة، عن وحدة الكائنات والكون في عالم شرس ملوّث. الحيوان فيه يعلّم الإنسانَ معنى التضامن.

الناشر



قصة النورس والقط الذي علّمه الطيران